أعود بعد الموت

سهيل الشعار

أعود بعد الموت

قصص وهموم مبكّرة

كُتبت بين عامي ١٩٨٨-١٩٩٤

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

أعود بعد الموت: قصص وهموم مبكرة كتبت بين عامي ١٩٨٨-١٩٩٤ / سهيل الشعار . – دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧.- ص ١٢٨؛ ٢٠ سم. (قصص).

١- ٨١٣.٠١ ش ع ا أ ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦١ ش ع ا أ
٣- العنوان ٤- الشعار ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

قصص

الإهداء

إلى أمي:

الشمعة التي لن تنطفئ أبداً...

- لا أعرف العالم إلّا عندما أكتب...

وحين أتوقّف عن الكتابة... أضيع

جوزف روث

- إنني أكتب محاوِلاً أن أفهم لماذا

تنازعني نفسي للكتابة؟!

روب جرييه

أعود بعد الموت

أنـا هـو فاوسـت، بنهمـي المجنـون للمعرفـة، وجـوعي للحقيقـة الخالـدة ولليقين... الجوع الذي ما روته علوم الأرض وكنوزها، وشفاه النساء وأسرار النجوم وخفايا الغيب... كنت أبحث عما وراء هذا كله. عن نفسي. (جوته)

كنتُ منذ الصباح أشعر بألم خفيف في الناحية اليسرى من الصدر، وكان هذا الألم يزداد مع صعود الشمس رويداً رويداً إلى سماء المدينة.

حوالي الساعة السابعة مساءً جاء صديقي وصعدنا إلى سيارته نحو المقهى الكائن وسط المدينة، وكان الناس في المقهى يتحدثون بأصوات منخفضة مرفقة بإشارات بطيئة...

وعاد الألم ثانية ولم أتناول الشاي، سألني صديقي عن السبب، أجبته بأنني أشعر بألم منذ الصباح وأشرت له بيدي نحو صدري.

قال مندهشاً:

هل تناولت شيئاً من دون غسيل؟ خضاراً... فواكه...؟

أجبته بلا.!

وساد صمت ثقيل بيننا لعدة لحظات قطعته بقولي: أريد الذهاب إلى البيت.

- ماذا حدث يا رجل؟ السهرة ما تزال من أوّلها!

قلت وأنا أنهض بهدوء ثقيل:

لا... لا... يجب علي أن أعود، فأنا بحاجة إلى الراحة وأحس بأنها تنتظرني داخل بيتي.

- كما تريد.

قال ذلك وهو يقف ويمد يده ليساعدني على السير وتابع:

فعلاً، التّعب ظاهر على وجهك!

وفجأة وقعتُ على الأرض، وأحدثت وقعتي ضجيجاً صارخاً...

وتراكض الناس من كل ناحية، أحسست بهم يتزاحمون فوق رأسي طالبين مشاهدتي، وسمعت أصواتهم وشعرت بها تدخل أذني:

ماذا حدث يا شباب؟

- ماذا جرى له...؟

واختلطتِ الأصوات، وشعرت بيدي صديقي المخلص يحملني بين ذراعيه ويركض بي نحو السيارة وهو يناديني بأعلى صوته...

وصعد معنا ثلاثة شباب، تحدّثوا إلى صديقي:

توجّه إلى أقرب مشفى...

وقال أحدهم مشيراً بيده:

اطلع من هنا، بهذا الطريق، بسرعة... بسرعة...

عند هذه الكلمات الأخيرة، شعرتُ بأنني أخرج من جسدي، وأرتفع نحو الأعلى، إنها روحي تخرج من جسدي بالرغم عنها...

طوال الطريق وأنا أرفرف فوق السيارة المسرعة إلى أن وصلنا المشفى... توقّفت السيارة، ونزل صديقي بسرعة، وحمل جثتي وأنطلق بها يركض نحو الداخل... وُضعت جثتي داخل غرفة العناية المشددة، وبقيت معها أراقبها وأراقب الأطباء يعبثون بها، ويحرّكون الأيدي بهدوء، وأحدهم وضع باليد اليمنى للجثة إبرة مصل.

كنت أشعر بالسعادة، وأنا أسبح في جو الغرفة، وكنت بالوقت نفسه حزيناً لفراقي جسدي... خرجت من الغرفة، كان صديقي لا يزال واقفاً قرب الباب منتظراً النتيجة، وكان الحزن بادياً على وجهه.

نزلتُ إليه، أمسكته من يده، لكنه لم يشعر بي، ناديته... كذلك لم يسمع... ناديت الممرضة التي كانت قادمة، وعندما لم أسمع

الرّد أدركتُ أنني انفصلت عن عالم البشر ودخلت في عالم الأرواح.

وارتفعتُ مرةً أخرى بسهولة، وخرجت إلى الشارع... وبينما كنت أراقب الناس شاهدت سيارة أهلي قادمة... توقفت السيارة ونزل أخي الكبير ومن ثم خرجت أمي كئيبة يائسةً...

وسمعتها بعد أن اقتربت منها:

قلت له بألّا يخرج من البيت!

وهرعوا إلى الداخل في حالة اضطراب... سألوا عني، دلتهم الممرضة إلى الغرفة التي وُضِعت جثتي بها وقادتهم إلى قاعة الانتظار حيث جلس صديقي ينتظر خروج الطبيب بصبر شديد...

وكنت قد نزلت إلى جانب أمي، وكلمتها، لكنها لم تسمعني، ولم تشعر بي أبداً، حاولت عدة مرات أن أحدّثها ولكن دون فائدة.

سرتُ إلى جانبها بسرعة كما كانت تسير، وبقيتُ أسبح في قاعة الانتظار بينما الكل كانوا قد جلسوا ينتظرون النتيجة.

خرج الطبيب، فهرعت أمي نحوه...

خير يا دكتور، طمّنا؟

صمت الدكتور قليلاً وارتبك وهو ينظر إلى وجه أمي المتسائل...

كانت الأنظار قد توجّهت نحو الطبيب بقلق حيث وقف وسط جو من الارتباك الشديد، حطمت كلماته الحزينة جدار الصمت قائلاً:

البقية في حياتكم، لقد مات!

أنا نفسي لم أصدّق كلامه، دخلت الغرفة لأتأكّد... وفعلاً، كانت جثتي ممددة على السرير، ذابلة نحيفة، تدل على الموت الكامن في داخلها، وفوق السرير عُلّقت ورقة بيضاء كُتب عليها: متوفّى.

وسمعتُ في الخارج أحدهم يريد الدخول وصوت أمي يرتفع: أرجوك يا دكتور دعنا نراه.

وقبل أن يدخل أحدهم الغرفة عدتُ إلى جثتي بصعوبة وفتحت عيني وسمعتُ الباب ينفتح، وشاهدت أمي تدخل باكيةً، مادةً ذراعيها بحنان وهي تصرخ:

يا ولدي الحبيب...

لكنها وقفت مندهشةً، عندما نهضتُ عن السرير وأمسكت الورقة من فوق رأسي ومزّقتها أمام نظراتها الحائرة، وقلتُ وأنا أتقدّم نحوها بخطواتٍ هادئة:

لا تصدّقي يا أمي، إنّهم يمزحون معك، أنا لم أمت.

* * *

الرحيل في أمسية باردة

رسمت الثلوج خطوطاً من الموت المتشابكة وألقتها حول بيتنا، وعلى الطريق الترابي الذي يربطنا بالشارع الطويل... ونعق غراب بعصبيةً فوق تلك الشجرة العارية ثم رفرف مبتعداً... عندها، كنتُ واقفاً إلى جوار فراش أبي، الممدد كقطعة من المطاط تصعد وتهبط بهدوء...

بكيتُ بصمت، تذوّقت الدموع المالحة التي حفرت مجراها فوق خدي:

كيف أصبحت يا أبي؟

ظلّت عيناه مغلقتين وتمتم بوهن:

تحسنت قليلاً، لكنني لا أزال أحسّ بالألم.

فجأة برقت في رأسي فكرة، فاتسعت عيناي وظهرت فوق وجهي ابتسامة قصيرة صامتة:

الحمار... نعم نعم سأبيعه فهو أملنا الوحيد...

وخرجتُ تاركاً أبي يئنّ بحسرة ويأس... وحمارنا يعرج منذ سبعة شهور وذلك عندما هاجمه كلب شرس وعض قدمه اليمنى، وكان

أبي راكباً على ظهره، وشكر الله على أنه لم يكن سائراً فوق الأرض، وأذكر جيداً أن أبي غضب وزمجر عندما وصل إلى البيت وشاهد الجرح الذي أحدثه الكلب وطالب بعقاب ذلك الكلب اللعين أشدّ العقاب لكن كلامه ما لبث أن تلاشى كسحابة من الدخان، وكانت عينه اليمنى أيضاً مشوّهة وأظن أنه خُلق هكذا - لا يرى إلّا بعين واحدة فقط - ولم أسأل أبي يوماً ما عن صحة ظنّي هذا.

مَن هو المجنون الذي سيقدم على شراء حمارنا في هذه الأيام؟

فالثلوج تحاصر المدينة من كل ناحية، والبرد والصقيع والخوف يمنع البشر من مغادرة بيوتهم ومدافئهم.

أخي لو أفترض أنني بعته فمن أين سيجلبون له الطعام، هم عاجزون عن أطعام أنفسهم فكيف لو أتوا بحمار وأضافوه إلى مائدتهم؟ على كل حال سأحاول...

أعاقت الثلوج المتكدّسة تقدّمي، لذلك تأخّرت قبل أن أصل إلى السوق، ولم يكن هناك إلّا القليل من الرجال، كانوا قد تجمعوا حول موقد يبثّ دخاناً أسود كثيفاً...

«عرضتُ الحمار عليهم فنظروا إلى وجهي وإلى الحمار باستغراب ودهشة. واعترض بعضهم على هذه السلعة:

هذا حمار أم نصف حمار؟ انظر إليه يا أخي: بعين واحدة ويعرج أيضاً، قال حمار قال!!».

حاولت إقناعهم أن أبي كان يستخدمه طوال النهار في نقل الخضراوات وأنه قوي رغم هزال جسمه:

لا يغرنّكم المظهر يا شباب، المهم المضمون. وأصغيت وحماري إلى ضحكات طويلة متقطعة أحدثها الرجال... وقال أحدهم مشيراً بإصبعه إلى الحمار:

هل لديك غيره يا ولد؟

دفعتني رغبة قوية لأن أبصق في وجهه المتجعد، فقطع هذه الرغبة سؤال آخر:

لماذا لا تجيب يا ولد، هل لديك غيره؟

وأكل الحزن قلبي الصغير، وتكوّرت الدموع المالحة داخل عيني الكئيبتين، لكنني لم أسقطها أمامهم. وعادت السماء لتثلج من جديد، قطعاً بيضاء ناعمة، راحت تتهادى ناسجة فوق ظهر الحمار شريطاً أبيض، وفوق رأسي قبعة بيضاء باردة.

«استدرتُ عائداً إلى البيت، جاراً الحمار، تاركاً ضحكاتهم تعلو... وتعلو ورائي، ولم أكن أعرف أن أبي كان قد فارق الحياة بعد خروجي بقليل...»

* * *

المصيدة

أسرع بإغلاق النوافذ والأبواب والفتحة الصغيرة التي تخرج منها المياه وبدأت المطاردة..

- هذه المرة لن يستطيع أن يفلت من قبضة العدالة.!

رفع إناء الزهور وضربه لكنه لم يحقّق الهدف...

عاد ثانية وبشكل جنوني أمسك صحن السجائر والحذاء وإبريق الشاي ورمى بتلك الأشياء نحو الجرذ... لكنه لم يصبه، وفشل في النهاية، بعد أن خلّفت هذه المعركة خسائر مادية لا بأس بها.

كان الجرذ يقفز في كل مرة معلناً نجاته من الموت، يصدر صيحة انتصار ويعود مرة أخرى ليقفز هنا... وهناك فوق الطاولة والسرير... وهرعت الزوجة من الخارج:

ما بك يا رجل، ماذا أصابك، هل جُننت؟!

فتحت الباب، فقفز الجرذ هارباً، ماراً من بين قدميها... ذُعرت فجأة وسقطت على الأرض وهي تضحك وتصيح:

إنه الجرذ... إنه الجرذ...

أجابها الزوج:

هل شاهدت مَن هو المجنون؟ من شروط الصيد يا زوجتي الهدوء والمطاردة بصمت، لو لم تفتحي الباب لكان صاحبنا في قبضة يدي.

وضحك الاثنان معاً ضحكات طويلة مرحة..

- ٢ -

كان الليل لا يزال مرخياً ستاره الثقيل على جميع الأشياء...

همس بأذنها وهو يقترب منها:

هل تسمعين حركة في المطبخ؟

- نعم، لعله الجرذ...؟

نهض بحذر، ودون أن ينتعل الحذاء، تقدّم من باب المطبخ، فتحه بهدوء وأشعل النور، سمع حركة وشيئاً أسود يدخل بين الأواني والأوعية المبعثرة، وسمع صوت زوجته تنادي:

هل صحّ ظني يا زوجي الحبيب؟

لم يجبها، تقدّم أكثر، فتح الدرج وتناول المصيدة بهدوء وثقة، ونادى زوجته بصوت خفيف:

أين الخبز يا امرأة؟

- هل أنت جائع؟ ما أكبر بطنك (يا زلمي)، لا بأس سأعاونك في إعداد الطعام...

اتجهت نحو المطبخ، قال وهي تدخل:

ما أبردك يا امرأة، دائماً أنت هكذا، قولي لي الآن أين الخبز؟ أنا لست جائعاً، وإنما الجرذ يطلب ذلك، سنطعمه خوفاً من أن يقضم الثياب مرة ثانية، فأنا خائف على ذلك القميص وتلك السترة الجديدة، فهو لا يعرف كم شهراً صبرت حتى ظفرت بهما، هذه المرة سيكون طعامه من نوع آخر.

- ما الذي تقصده بنوع آخر؟

- انظري. بالأمس جلبت هذه المصيدة، أنظري ما أجملها، هل تجربينها؟

قالت مبتسمة:

جرّبها أنت، فأصابعك خشنة كالخشب.

نظر إليها مُظهراً ابتسامة لطيفة:

لا... لا... سيجربها الجرذ أولاً، فهو أخشن مني ومنك.

أطفأ النور، وعادا إلى السرير بعد أن وضعا الخبز فوق المصيدة، وراحا ينتظران بقلق وصبر شديدين... وطال الانتظار... وطال معه الصبر والقلق... سألت الزوجة وهي لا تزال تنظر إلى السقف وكأنها تقرأ أفكارها مكتوبة في الأعلى:

ترى هل له أصدقاء؟

أجابها الزوج محاولاً أن يخفّف من حدة صوته:

لا ترفعي صوتك، من المحتمل أن لا يكون وحده، ولكن صيده سوف يترك فراغاً داخل جماعته من الجرذ.

تابعت الزوجة متسائلة:

وهل له أولاد وزوجة؟ لو كان ذلك لاقترفنا بصيده جريمة بحق عالم الجرذ، ألا توافقني على ذلك؟ فمن سيطعم صغاره وزوجته بعد موته؟

- نعم أنا أوافقك على رأيك يا سيدتي، ولكن هل تستطيعين أن تفهميني وتقولي لي، من قال لذلك الجرذ اللعين أن يقضم بنطالي ويأكل قسماً من قميصي... ها... من قال له ذلك؟ لو أنه لم يفعل لتركته بحال سبيله.

أجابت زوجته:

الجوع يا زوجي، نعم الجوع هو الذي يدفعه لفعل كل ذلك، يقضم ويأكل... ويقفز ويهرب لكي يبقى حيّاً، أليس كذلك؟؟

ووقع الزوج في شباك القلق، وراحت أفكاره تسبح وتتنافر لإيجاد حل لهذه المشكلة:

إما الثياب وإما الجرذ.

نهض شارد الفكر، وجلس بجانب السرير ينظم أفكاره، ويحاول أن يجد حلاً مناسباً، بحيث يحافظ على الثياب وعلى حياة الجرذ في وقت واحد. ومرت برأسه فكرة سريعة، فقال لزوجته:

ترى لو نقلنا ثيابنا إلى الغرفة في الطابق الثاني فهل سيلحقنا الجرذ إلى هناك؟

- لا أعتقد.

- إذن دعينا نأتي بالمصيدة، قبل حدوث أذى للجرذ. قالت الزوجة وهي تنهض:

لنبدأ...

وسارت بجانب زوجها إلى المطبخ...

فجأةً، سمعا المصيدة تطبق بشكل مخيف... ركضا نحو الباب، أشعل الزوج النور... كانت دماء حارة تسيل من رأس الجرذ

صابغة الأرض بلون أحمر، اقترب الزوج، رفع المصيدة، كان الجرذ يتخبّط ومن ثم توقف عن الحركة بصمت حزين، تنهدت الزوجة بألم:

آه منك يا زوجي، لقد تأخرنا!

أجاب الزوج وهو يرمي بالمصيدة بعيداً:

لا تتأسّفي يا زوجتي، فبذهابه سوف يأتي المئات... وموت جرذ لا يعني شيئاً في عالم تملؤه الجرذان.

* * *

الحلم المرعب

إلى بيروت...
مدينة الأحلام والحقائق...

أدفع جسدي داخل أحشاء الليل الطويل لتبتلعه ظلمة الشوارع والأزقة المتغلغلة في جسد المدينة... هذا هو الشهر الثالث الذي أستيقظ فيه على صراخي واستغاثتي، وذلك الحلم المرعب يجتاح كياني وأعماقي ويتغلغل ليملأ مخيلتي في كل ليل.

- ليتني لا أحلم!

في ظلمة الليل أرى أشباحاً مخيفةً، عيونهم كالقطط السوداء الشريرة تلمع وتبرق وسط ظلام الليل... يتقدمون بحرابهم، يحفرون الأرض ويقتلعون الأشجار، ثم يزرعون مكان كل شجرة شبحاً مرعباً.

يتقدمون نحو مدينتي الهادئة، أراهم من وراء نافذتي الصغيرة يركضون وراء الأطفال ويجلدون الشيوخ والنساء، يسكبون الوقود في كل مكان، ثم يحرقون المنازل وحقول القمح وأشجار الزيتون...

تمتد النار لتلتهم كل شيء... كالجراد الذي يغزو حقولاً خضراء ندية... تزداد النار وتكبر... تتحوّل أطراف المدينة إلى جحيم لا يطاق...

تمضي ساعات وأنا أتأمل هذا المشهد المروّع... وأنتظر احتراقي داخل غرفتي الصغيرة... وفي البناء الآخر تهب النار... أسمع صراخ الأطفال والنساء تدخل أذني... أستفيق... أصرخ... أصرخ بأعلى صوتي... أستيقظ فجأةً...

استغاثتي وصراخ الأطفال لا تزال ترن داخل رأسي الصغير... أشكر الله على أنني كنتُ أحلم... وأتمنّى لو أنني لا أحلم مرة أخرى.

تلك الأحلام التي كانت تراودني دائماً، تثير في داخلي قلقاً وخوفاً عميقاً من الآتي... ليتني لا أحلم، يا ألف ليت!!

- ٢ -

«أدفع جسدي الصغير من جديد ليبتلعه ظلام الليل والشوارع الطويلة الخالية من المارة، وحيداً أسير فوق الأرصفة، لا أحد يؤنس وحدتي ويبدد خوفي وقلقي... أشعر وأنا أسير بأنني أغرق في بحر من الظلام... أصعد وأهبط... أدخل في شارع وأخرج من شارع آخر والحلم يلاحقني حتى وأنا مستيقظ». أتساءل:

هل أحلام بقية المدن مثل أحلام بيروت؟

وبيروت...

أراها تحترق، أشاهد سكانها يخرجون بذعر من أحشاء أبنيتها العالية طالبين النجدة، كالنمل الذي تُحرق بيوته، يركضون وسط الشوارع، يتزاحمون عند أبواب الملاجئ الضيقة، وأنا أنظر من وراء نافذتي الصغيرة منتظراً الحريق الذي سيهب فجأة داخل غرفتي إثر سقوط قذيفة أو قنبلة حاقدة...

تشتعل النار في البناء المقابل، وتخرج ألسنة اللهب من النوافذ والأبواب، أرى الأطفال يخرجون بخوف وذعر، أصرخ... أستغيث بأعلى صوتي... يوقظني صراخي المرير، يجف حلقي، أشعر بالاختناق، أهبّ كالمجنون.

أفتح النافذة... أتأكّد من عدم وجود النار داخل البناء المقابل وفي بقية الأبنية المجاورة... أطمئن وأستريح، تدغدغني أشعة الشمس ويلامس وجهي نسيم الصباح، كل شيء على ما يرام، الحركة في الشارع الطويل والسيارات وأصوات الباعة ودخان المصانع الكثيف، الحمد لله - كل شيء اعتيادي وعلى ما يرام - لكنني خائف... وقلق جداً من الآتي...

-٣-

حلمي يتحوّل إلى حقيقة قاسية وفاجعة مريرة، بيروت بدأت تحلم مثلي وتعيش حقيقة نفس الحلم الذي ظل يراودني... ها أنا أستيقظ

على صراخ الأطفال واستغاثتي... وأصوات القنابل المتساقطة فوق المدينة...

«أهبّ كالمجنون، أركض... أفتح النافذة، يصعقني المشهد، أحاول عبثاً إقناع نفسي أنني في حلم جديد، أرى النار تلتهب في البناء المقابل، والأطفال والشيوخ والنساء يخرجون بذعر شديد من الأبنية...» أستغيث... أصرخ بأعلى صوتي... يتحول صراخي إلى حشرجة مريرة حارقة تكاد تخنقني.

أتمنّى أن أكون في حلم جديد... وأن يوقظني صراخي واستغاثتي كما كان يحدث كل صباح!

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث... أرى حقيقة ألسنة اللهب الحمراء تخرج من النوافذ والأبواب، وتمتد إلى غرفتي...

ولم أعد أفهم شيئاً، وجدتني تائهاً، متشرداً في الشوارع، أركض بخوف واضطراب مع بقية الناس... وكل ما رأيته وأنا أنطلق هارباً، مدينة كبيرة اسمها بيروت، تحترق... وتحترق... وتحترق...

* * *

صراخ الطيور السوداء

أنا كاتب يائس، متشائم، أرى من خلال التشاؤم والموت إمكانية الحياة

حيدر حيدر

تأتي مرة أخرى، من وراء تلك التلال والجبال البعيدة... تتصايح هنا، وتتشاجر هناك فوق السهول وسطوح المنازل.

- لماذا تأتي هذه الطيور السوداء في كل عام؟! أتساءل بيني وبين نفسي، وأخشى ألّا يسمعني أحد، فيعتبرني إنساناً خارجاً عن قوانين الفصول والطبيعة.

في العام الماضي، جاءت بكثرة وفي مثل هذا الوقت، عشّشت في البيوت الترابية، وداخل سطوح القرميد، وقبل رحيلها أخذت معها جدتي! منذ تلك الأيام، نبت في قلبي الصغير الحقد والتمرد على هذه الطيور، وأصبح الشؤم والقلق والاضطراب هو الشيء الوحيد المسيطر على رأسي عند قدومها... جدتي قالت لي قبل رحيلها:

إن هذه الطيور نافعة، تأكل الحشرات وتمنع تكاثرها حول المستنقعات، وإن قدومها يعني استمرار الحياة... ولكني...

كنت متشائماً في كل مرة تأتي الطيور السوداء لتعشش في بيوت المدينة ولتتصايح وتتشاجر هنا... وهناك...

- ٢ -

قبل أن ترحل جدتي بعامين كنت لا أزال صغيراً ولا أعرف كيف أربط الحوادث مع الزمن... في ذاك الوقت رأيت جدتي تبكي بمرارة... سألتها عن السبب، وقبل أن أسمع الرد، فجأة دخل طير من تلك الطيور من نافذة الغرفة المفتوحة، رفرف بذعر ثم ارتد إلى الخارج...

قالت جدتي:

أبكي على جدك يا بني، رحل وتركني وحيدة في هذه الدنيا!

عندها لم أفهم شيئاً من كلامها وغزارة دموعها، وكل ما عرفته أن جدي من الصعب رؤيته مرة ثانية!

والآن أتذكر أن موت جدي كان مرافقاً لرحيل الطيور السوداء عن المدينة، وها هي جدتي ترحل وتتركني وحيداً في هذا العالم.

- ٣ -

الطيور السوداء تتصايح من جديد وراء النافذة وفوق السطوح، تهبط حتى إنك تظنها ستصطدم بالأرض، ثم ترتفع فجأة وبسرعة غريبة محلّقة في السماء... أخاف من النهاية، وأرغب بأن لا ترحل هذه الطيور السوداء عن المدينة، وعلى الرغم من أنني

أمقتها وأكره رؤيتها وصوتها الجارح، لكنني أقلق بشأن رحيلها وأتمنى لو ظلت هنا تتصايح وتتشاجر داخل صدري وفي رأسي الصغير...

وأملي في بقائها كان يستمر مع كل صباح أنهض على صراخها وتشاجرها وراء نافذتي الصغيرة، ومع كل صباح، كنت أذهب إلى الحدائق، أجمع الديدان والحشرات، ثم أصعد بها إلى السطح أضعها هناك وأهبط، لعل الطيور السوداء تستمر في الإقامة عندنا في هذه المدينة الكبيرة...

في أحد الأيام لم أستيقظ على صراخها وتشاجرها، أيقظتني جارتنا وطلبت مني أن لا أخاف وأن أكون رجلاً، عندها بكيت كثيراً، وعرفت أن شيئاً ما قد حدث...

تركت جارتنا وخرجت...

كانت السماء خالية من تلك البقع السوداء المتحرّكة، بحثتُ بنظراتي المتعبة عنها فوق السطوح وقرب النوافذ... لكنها كانت قد رحلت قبل استيقاظي...

وفي الغرفة الثانية كان الجيران يبكون حول أمي الممددة فوق السرير.

* * *

نجوم بعيدة مطفأة

ترنّح الرجل وسعل بشدة ثم أخذ يسير في الشوارع... وكانت السماء فتاة فاحمة الشعر وذات عيون زرقاء كثيرة، تلمع وتبرق بشكل حاد بعيد، وكان الرجل قد احمرَّ وجهه من كثرة ما تجرّع من خمر، وحين فقدَ رشده خرج من ذاك الحانوت وشرع يشتم بلغة رخوة ممطوطة السماء والله والناس... والدولة والعدالة... ورجال الشرطة...

وفي هذا الوقت كان الفتى وديع عائداً من الدكان حاملاً معه وعاءً مملوءاً لبناً، وكان الشارع صامتاً وخالياً من المارة حين شاهد الرجل وديعاً، فصمت ثم اقترب منه بخطوات غير ثابتة...

وقف وديع مستغرباً كيف كان الرجل يسير بهذا الشكل المضحك، وبعد أن وصل الرجل إلى جانب الصغير، انتشرت رائحة الخمر، فعرف وديع سبب ترنّحه.

قال الرجل بصوت خشن:

إلى أين أنت ذاهب يا صبي؟.

- إلى البيت.

سعل الرجل بصعوبة ثم سأل:

إلى البيت، وماذا تحمل بيدك؟

- لبناً.

هات، ناولني إياه...

قال وديع بخوف:

هذا اللبن لأمي، إنها مريضة وقد قال بعضهم إن اللبن ينفعها.

قال الرجل بحنق:

قلت لك ناولني الوعاء بسرعة. بسرعة.

ردَّ وديع بصوت ضعيف متردد:

خذ يا عمي، اشرب قليلاً، واترك لنا الباقي. خطف الرجل الوعاء ودلقه في بطنه دفعة واحدة، ولحس شفتيه بنهمٍ، ماسحاً بظهر يده الضخمة فمه الواسع، ثم رمى بنزق الوعاء بعيداً...

قال وديع وهو يكاد يبكي:

قلت لك أمي مريضة، لماذا شربت اللبن كله؟ رفع الرجل رأسه إلى السماء وقهقه بصوت عال... ثم سعل واقترب من وديع أكثر وأمسك بثيابه:

ألا يعجبك تصرّفي هذا...؟ ها... ألا يعجبك؟!

ارتعش وديع جزعاً... ولسببٍ ما تذكّر أمه المريضة ووصيتها بأن لا يتأخّر وأن يسير إلى جانب الشارع، وحاول أن يتذكّر أشياءً أخرى قالتها له، لكن الرجل هزّه بعنف وسأله مرة أخرى:

لماذا لا ترد يا صبي؟ ها... قلت لك ألا يعجبك تصرّفي؟!

وظلّ وديع صامتاً لا يعرف ماذا يفعل، فقال الرجل وهو يسحب من جنبه خنجراً التمعت شفرته الحادة تحت ضوء النجوم:

إذا لم تتكلّم فسوف أذبحك؟

فشهق وديع وارتبك، وشعر بالهلع والرعب، والتمعت النجوم البعيدة داخل عينيه الواسعتين المحدّقتين بالخنجر، فحاول التّكلم، لكنه لم يستطع. «وبحركة عنيفة قاسية، فصل الرجل رأس الفتى الصغير عن جسده، ولعدة لحظات ظلت النجوم الزرقاء البعيدة تلتمع داخل عيني وديع... ثم انطفأت».

* * *

الفأر والمدينة

تمدّد أبو نهلة فوق السرير، وعقد يديه وراء رأسه، ثم شرع ينظر إلى الأعلى وقد بدا عليه أنه يفكّر بشيء قديم يثير في النفس ذكريات عذبة...

وفي الخارج كانت المدينة هاجعة كامرأة ضخمة مرتدية عباءة سوداء داكنة، وهناك ومن وراء النافذة كانت أشباح البنايات العالية تتألق نوافذها ببريق أصفر خافت...

وأبو نهلة رجل سمين إلى حد ما، منتفخ البطن، ورغم سمنته وانتفاخ بطنه كان الناظر إليه أوّل ما يميّز رأسه الصغير عن بقية أعضاء جسمه وكأن ذاك الرأس خُلق ليكون في جسد آخر، والشيء الثاني الذي يلفت النظر في أبي نهلة أسنانه الصفراء القاتمة.

منذ عدة أيام جاء أبو نهلة إلى المدينة قادماً من بلدته البعيدة، وكان الهدف الرئيس من قدومه إيجاد عمل شريف يضمن من ورائه حياة كريمة هادئة، وبعد أن استقر داخل غرفة صغيرة ذات نافذة واسعة تشرف على الطريق العام، بدأ البحث عن عمل...

فجاب المدينة كلها تقريباً وضّل الطريق أكثر من مرة، ورغم بحثه وضياعه فوق الشوارع العريضة والأزقة المكتظة بالسكان لم ييأس، بل استمرّ بالبحث محاولاً إقناع نفسه في كل صباح أن المدينة أم الفقير، وأنه لا بدّ وأن يجد عملاً في نهاية المطاف...

ومرّ في مخيلته حديث بعض الرجال الذين عرضوا عليه عملاً ليلياً كمهرّب وسيط، لكن حركة ما داخل الغرفة الصغيرة، وتحديداً في الزاوية المظلمة المتراكم فيها كسرات الخبز الجاف، قطعت عليه ذكرياته لعدة لحظات... وما لبث أن عاد إلى نفسه متسائلاً:

يا جماعة وإذا قُبض علي ها... منَ سيكون السبب؟ من المسؤول أخي، ها... من؟ أنا أريد عملاً شريفاً حتى ولو كان بسيطاً:

عتّال، زبّال، لا فرق أخي، أي عمل، المهم أن لا يشير أحد إلي بأصابع الشك والحذر.

ازدادت الحركة في الزاوية وبدا أن هناك كائناً يقضم كسرات الخبز، فأبعد أبو نهلة الغطاء عنه ونهض، ثم سار بحذر وهدوء نحو الزاوية وهو يبحث في جيبه عن علبة الثقاب، ولمح من وراء النافذة أشباح البنايات وأضواء برتقالية خافتة، فأشعل عود الثقاب، وعلى الجدران المقابلة تراقص ظلّهُ الضخم، وفجأة، ودفعة واحدة، تذكر أنه في أحد أيام الشتاء القاسية عندما كان لا

يزال في بلدته البعيدة، كيف دخل منزله في الظلام الدامس مجموعة من اللصوص وأجبروه على دفع كل ما لديه من نقود...

حاول أبو نهلة تجاهل تلك الأحداث، فأشعل عود ثقاب آخر واقترب من الزاوية... وعلى ضوء العود البرتقالي شاهد فأراً صغيراً يقضم فتات الخبز...

- هذا أنت، ماذا تفعل هنا؟

همهم أبو نهلة وقد اطمأنّ قلبه، فتناول عود ثقاب جديد وأشعله:

قلت لك ماذا تفعل هنا؟ ها... أمن حقّك أيها الفأر الصغير أن تدخل بيوت الناس من دون أذنهم؟

شعر الفأر أن هناك رجل ما يتحدّث، فالتفت إلى أبي نهلة الذي سأل من جديد:

ألا يعجبك كلامي، ها؟ لماذا لا ترد؟ ألا تسمع أيها الفأر؟ قلت لك...

وتوقّفَ أبو نهلة عن الكلام فجأة، وانتابه رعب وخوف حين سمع من بين كسرات الخبز صوتاً يردّد:

أنا جائع يا سيدي، أنا جائع...

ولم يجرؤ أبو نهلة أن يقول شيئاً آخر، وقد شعر حينذاك أنه هو أيضاً جائع، وأدرك بشكل عفوي، أن من حق أي كائن حي أن يدخل بيوت الآخرين حين يكون جائعاً ولا يملك ثمن طعامه، وقرّر أبو نهلة خلال تلك اللحظات، أن يذهب غداً صباحاً إلى تلك البنايات العالية... سوف يدخل إليها... ومباشرة إلى المطبخ، سيتناول الطعام، سيأكل كثيراً، وإذا حدث وسأله أحد ما، أو عارضه، فسوف يقول له أنه جائع... جائع جداً...

وكان عود الثقاب قد انطفأ، فمضى أبو نهلة إلى الفراش وهو يحلم بطلوع الصباح وبتلك البنايات العالية، تاركاً الفأر الصغير يقضم ويأكل كسرات الخبز في الزاوية المظلمة...

* * *

جنيّة البحر

الحب في صمت أحلى حب...
لكنه انتحار بطيء.

لم أعد أذكر بالضّبط...

كما أنني لا أزال أشك بحقيقة ما حدث منذ عشر سنوات...

أتحسّس القلادة الخضراء فوق صدري:

تراه كان حلماً لذيذاً أم حقيقة؟!

لم أعد أذكر بالضبط... لم أعد أذكر...

قرب الشاطئ كان لقاؤنا الأول، وقرب الشاطئ كان الفراق، حدث ذلك منذ عشر سنوات تقريباً حين كنت لا أتجاوز العشرة أعوام من عمري.

وكان البحر أمام شرفة منزلنا رمادياً وعالماً من الأسرار والكنوز وأحلاماً وردية منعشة تراودني طوال الليل...

وقرب الشاطئ وعلى صخرة غسل الموج وجهها كنت أجلس أتأمل خيوط الشمس الغاربة والفارشة فوق وجه البحر وشاحاً

أحمر، وكانت الأمواج تهدر كعاصفة هوجاء في شتاء مضطرب ثم تصمت فجأة ويسود السكون والهدوء الشاطئ الطويل ورماله الناعمة.

وكنت لا أزال أحلم بتلك الأسرار والكنوز الدفينة في أعماق البحر...

وكانت الجنية التي أخبرتني عنها جدتي تحتل جزءاً كبيراً من أحلامي تلك... إلى أن جاء ذلك اليوم من أيام الربيع...

- تراه كان حلماً، أم حقيقة واقعية؟

لم أعد أذكر تماماً، وكل ما أعرفه أنني كنت واقفاً في ذاك اليوم الربيعي أتأمل بدهشة كبيرة فتاة رائعة جداً جالسة فوق صخرتي البيضاء، نصفها سمكة والنصف الأعلى إنسان، إذن تلك هي الجنية التي حدثتني عنها جدتي الحنون:

«... جنيات البحر يا بني نصفها الأول أذيال أسماك والنصف الثاني جسم إنسان، لا تخف يا بني إذا حدث يوماً والتقيت بإحداهن فجنيات البحر يحببن الصغار كثيراً، ولا يأتين إلى الشاطئ إلّا في الربيع عندما تكون الأشجار قد ارتدت أثوابها الخضراء، والتلال وسفوح الجبال والروابي غطتها الغابات الكثيفة...»

هكذا قالت لي جدتي ذات يوم...

ولم أصدّق وقتها رغم صغر سني، ضحكتُ من حديثها ثم نمت وأنا أحلم بالجنيات الغريبة التي تسكن أعماق البحار...

حديث جدّتي يتحول إلى حقيقة مدهشة، ففي ذاك اليوم من أيام الربيع اقتنعت بوجود مثل تلك المخلوقات التي تقطن عالم البحار.

كنت لا أزال واقفاً مشدوهاً معجباً بما أرى، وكانت الجنية جالسة فوق صخرتي تضحك بسرور...

أشارت بيدها:

تعال... اقترب ولا تخف... تعال...

وتذكّرتُ في تلك اللحظات كلمات جدتي مرة أخرى... فاقتربتُ وأنا أرتعش كورقة في خريف بارد ثم توقفت مرة ثانية وكأن موجة من الصقيع اجتاحت جسدي فجأة، ولعدة لحظات لم أعد أدري ماذا أفعل، كررت الجنية:

تعال... هل أنت خائف؟

ولسبب ما هززتُ رأسي مجيباً بلا...

- إذن، لماذا لا تقترب؟

وابتسمتْ من جديد... كانت طفلة مثلي، ناعمة، شعرها بلون الشمس وقت الغروب، ووجها أبيض كقمر في ليل من ليالي الصيف الهادئة.

رفعتُ يدي وأنا أقترب ثم همست:

مرحبا...

قفزت الجنية إلى الماء وهي تضحك ثم قالت: اجلس... أليست هذه صخرتك؟

- نعم، مَن قال لك ذلك؟

- قرأت اسمك عليها، مسكين هل تخاف أن ينساك الزمن؟

أجبتها وأنا لا أعرف ماذا تقصد:

نعم، وتابعتُ:

هل أنت جنية من جنيات البحر؟.

قالت وهي تقترب من الصخرة التي جلست فوقها: ومن أخبرك؟

- جدتي.

- جدتك؟

قالت هذا مستغربة، وابتعدت قليلاً... ثم عادت فسألتها: ما اسمك أيتها الجنية؟

- اسمي!

وانفجرت تضحك حتى أحسست أن البحر والنوارس والشمس الغاربة هناك تشاركها ضحكتها الناعمة.

- اسمي جميلة.

بدت عيناها في تلك اللحظات تلمعان تحت خيوط الشمس المسائية، وكان ذاك البريق يزداد التماعاً وتوهّجاً مع ابتسامتها وضحكتها الرقيقة.

كم كانت جميلة ورائعة، إلى الآن وأنا لا أزال أشك بحقيقة ما حدث وبواقعية ما جرى...

- تراه كان حلماً بريئاً من أحلام الطفولة أم أنه حقيقة؟

لم أعد أذكر، كل ما أدريه اليوم أنني التقيت في يوم من أيام الربيع بجنية رائعة قرب ذاك الشاطئ.

تعود ذاكرتي إلى ذلك اللقاء:

أين تسكن؟

- في المدينة، قرب هذا الشاطئ، وأنتِ؟

- نحن نسكن في أعماق البحار ولا نأتي إلى هنا إلّا في الربيع...

- إذن هناك غيركِ؟!

- نعم هناك غيري الكثير في البحر - في أعماق البحار - يقولون إنهم سيصعدون إلى هنا في الربيع القادم.

وفرحتُ...

فرحت كثيراً وتمنيّتُ في تلك الدقائق لو أن هذه الجنية الصغيرة تحملني معها إلى أعماق البحر للّتعرف على عالمها الغريب وأسراره وكنوزه.

لكنني سألتها فجأة:

ولماذا في الربيع القادم؟ لماذا لا يأتون في هذا الربيع؟

صمتت جميلة وهي تنظر نحو الغروب حيث كان الليل يستعد ليلقى ثوبه الناعم فوق البحر والمدينة، فقد بدت نظراتها متعبة حزينة...

التفتت نحوي وكأنها تتأكّد من أنني لا أزال جالساً فوق الصخرة ثم عادت لتنظر نحو الغروب وقالت:

لا أعرف تماماً، أخبرتني أمي أن الربيع القادم سوف يكون أكثر اخضراراً وجمالاً من هذا الربيع...

ستكون الأشجار والجبال والشواطئ خضراء، حتى المنازل وربما سكان المدن... كل شيء سوف يكون لونه أخضر...

- قلتِ أن لك أمّاً؟!

- وجدّة أيضاً!

وفي هذه المرة ضحكتُ أنا... وتخيّلتُ جدتي وأمي مثل جدتها وأمها لهما ذيلان طويلان مضحكان، وشاركتني جميلة ضحكتي الطويلة، ثم اقتربت مني وهي تنزع شيئاً يلمع من حول عنقها:

- خذ، هذه لك!

- ما هذه؟!

- قلادة، خذها، هذه هدية مني.

ولم تصبر جميلة لكي أتناولها من يدها الناعمة، بل قفزت إلى جانبي وانحنت لتضعها حول عنقي، ثم عادت إلى الماء وهي تضحك... قلتُ وأنا أتلمّس القلادة:

شكراً يا جميلة، شكراً...

كانت القلادة تلمع كعيني جميلة، وكان شيء ما معلّق بها أكثر التماعاً من القلادة ذاتها.

- ما هذه يا جميلة؟

سألتها وأنا أرفع ذاك الشيء المعلّق بالقلادة.

هذه جوهرة خضراء مرجانية، سوف تُنير لك الطريق وأنت عائد إلى المنزل، احتفظ بها ولا تعطيها لأحد، وتابعت وهي تبتعد ملوحة بيدها الناعمة:

إلى اللقاء... إلى اللقاء...

صرختُ:

جميلة... جميلة. لماذا لا تبقين هنا نلعب ونضحك وتحدثينني عن عالمك العميق؟.

- في الربيع... في الربيع إن شاء الله...

قالت ذلك وغطست في الماء... ومن بعيد شاهدت يدها تلوح مرة أخرى:

إلى اللقاء... لا تعطي القلادة لأحد... إلى اللقاء... إلى اللقاء...

ولوّحتُ بيدي كئيباً حزيناً على فراق تلك الجنية:

إلى اللقاء يا جميلة... إلى اللقاء...

وحين عدتُ إلى المنزل كانت القلادة تشع وتضيء الطريق أمامي كشمس صغيرة مشرقة...

وجاء الربيع...

وربيع آخر... وآخر... وكانت الأشجار باهتة، شاحبة الألوان، وسفوح الجبال والروابي قاحلة وجافة.

ولم تأتِ جميلة...

انتظرتها قرب صخرتي البيضاء أكثر من ربيع... لكنها لم تأتِ...

* * *

المفترسون

إنّني أتساءل كيف يحمل الإنسان كل هموم هذا العالم المضطرب داخل نفسه، ولا يجن؟!
حيدر حيدر

ذات ليلة حزيرانية دبقة، وجد أستاذ التاريخ عبد الله نفسه داخل مقهى يعج بديدان مختلفة صغيرة وضخمة وذات ألوان عديدة... ولم يمض على جلوسه دقيقة حتى تقدمت نحوه دودة شقراء طويلة رخوة ثم وقفت إلى جانبه سائلة بسخرية لاذعة:

ماذا يريد ضيفنا العزيز أن يشرب؟.

ودون أن يجيب عبد الله غابت الدودة لتعود بعد قليل حاملة كأس خمر فوق طبق من فضة.

وحين بدأ عبد الله يرتشفه أحسّ بطعم لذيذ وغريب وبخدر يجتاح أعصابه فأحنى رأسه على الطاولة ثم غفا...

بعد زمن لم يستطع عبد الله تقديره، شعر بأنياب صغيرة حادة تنهش لحمه... فاستيقظ مرعوباً، لكنه ما لبث أن عاد إلى النوم

بعد أن شاهد عشرات الديدان تتجمع حوله وتنهشه... وأستطاع أن يلحظ أيضاً ثعلباً ضخماً أنيابه مدماة يمد يده ذات الأظافر المعقوفة ليمزّق لحم جسده.

ورغم أن عبد الله، أستاذ التاريخ يحلم، لكن الغريب في الأمر أنه يعرف تماماً أنه في حلم!

ويستمرّ الحلم... الذي راح يتحوّل إلى كابوس مرعب!

ها هو عبد الله ممدد فوق مائدة واسعة طويلة يجلس في صدرها الثعلب الذي شاهده عبد الله عشرات المرات على شاشة التلفاز وقرأ عنه في الكتب والمجلات...

إنه ثعلب مشهور أفترس عشرات الأطفال والنساء وشعباً بأكمله، حتى جاء يوم أسود وأفترس فيه دولة، الثعلب كان قد تعاون مع عدد كبير من الذئاب ليقيم وكره فوق تراب الدولة التي شرّد شعبها وافترسها، وكر مليء بثعالب ملونة عديدة... لها أنياب حادة طويلة، أظافرها معقوفة تستطيع بواسطتها تمزيق اللحم البشري وأكله نيئاً!

على جانبي الطاولة الواسعة جلست ديدان شقراء تنهش بنهم لحم عبد الله النازف، أنيابها حادة مسمومة، إنها تضحك فرحة بالوليمة ومن حولها ترقص ديدان صغيرة لا حصر لها... تشارك الديدان الضخمة طعامها...

ويسمع أستاذ التاريخ صوتاً ساخراً ممزوجاً بضحكات طويلة متقطعة:

ما ألذّ اللحم البشري!

وتتعالى أصوات مؤيدة... صاخبة...

عبد الله يحاول الهرب...

ينهض بحذر ويقفز فجأة عن الطاولة ثم ينطلق...

يرى والمرارة تملأ قلبه، لحمه المنهوش، ودمه النازف... يركض مرعوباً هلعاً محاولاً الفرار...

الديدان تنظر إلية هازئة والثعلب اللئيم يقهقه بصوت عال وهو يرتشف كأساً مليئة بدم بشري...

ويشاهد عبد الله المنهوش وهو يدخل قاعة كبيرة مائدة أخرى مستديرة وأكثر اتساعاً من تلك التي كان ممدداً فوقها منذ قليل، حولها تجلس ذئاب متوحشة ينزّ الدم من أنيابها وأظافرها الزرقاء المعقوفة، وإذ يدخل عبد الله وهو يئّن متوجّعاً، تحدّق إليه الذئاب بجوع، فينهض عن الطاولة عدد منها ويحيطون بعبد الله النازف، وبعد دقائق يقبضون علية ويمددونه عنوة فوق المائدة لالتهام لحمه، ويستطيع عبد الله مشاهدة هياكل عظمية مكومة في الزاوية، يحاول عبد الله الصراخ... أو الاستغاثة...

الصرخة تسقط محترقة داخل صدره المنهوش... فينهزم من جديد بما بقي لديه من قوة ولحم ودم، يدخل سرداباً ضيقاً وعميقاً، رطباً ومظلماً، تفوح منه رائحة الدم واللحم البشري، فيتمنّى عبد الله أن يوقظه أي شيء...

لم يستيقظ عبد الله رغم محاولاته وتمنيّاته... بل ظلّ يركض داخل السرداب العميق الضيق...

وبين لحظة وأخرى كانت لوحات مضاءة بضوء أصفر شاحب تطالعه فيقرأ عليها تواريخ لكوارث وهزائم ونكسات حلّت بكوكب الأرض وسكانه، مدعومة بصور متوحشة لذئاب تأكل لحم الأطفال والشيوخ!

يحسُّ عبد الله ببعض الديدان تنغل في جسده ورأسه...

إنها لا تزال عالقة في لحمه وتمتص دمه بشراهة.

يزداد رعب عبد الله وهلعه...

إنه يركض الآن بجنون... يرى زوجته ممددة فوق سرير ضيق وهي تصرخ مستنجدة... وحولها مجموعة من الذئاب والثعالب تستعد لنهش لحمها...

يقترب عبد الله المنهوش مذعوراً هلعاً، يجمع قبضته وينهال بها على رأس أحدهم... لكنه يهوى فجأة، ويستيقظ!!

* * *

أحزان غرفتي الكئيبة

حين تعبتُ من التسكّع في شوارع مدينتي الصاخبة، عدت إلى غرفتي الصغيرة، وكانت شمس صفراء تنسج حولها ثوباً رمادياً فوقفت أتأمله للحظات ثم تابعت طريقي...

عند باب الغرفة وقفت قطتي السوداء تموء مواءً ملتاعاً وعندما شاهدتني هرعت نحوي بلهفة:

لماذا تأخرت؟ أنا جائعة جداً؟!

قلت وأنا أخطو مبتعداً عنها:

يا لك من «فجعانة»، ألم نأكل سوية بالأمس، قالت بحزن:

وهل سنعيش على وجبة واحدة طوال اليوم؟

- ولماذا لا، ها...؟ أنا لم أجع بعد!

وفتحتُ الباب فدلفت ورائي بتثاقل، قالت وأنا أرمي بجسدي المنهك فوق الفراش:

اليوم بحثت كثيراً عن الطعام في براميل القمامة لكن الأولاد لحقوا بي ورموني بالحجارة.

قلت:

هل تعرفين يا قطتي العزيزة؟

- ماذا أعرف؟

- لو كنت أملك مسدساً فهل تعرفين ماذا سأفعل؟

قالت وهي تتمدد قربي:

ماذا ستفعل؟ ربما ستطلق النار على العصافير ثم تأتي بها لنأكلها؟!

- لم تحزري يا صديقتي.؟

تابعتُ بعد قليل:

تعالي الآن لنأكل تلك القطعة من الخبز، وغداً سأخبرك.

ففرحت القطة ودارت عدة دورات داخل الغرفة ثم جلست تنتظر، سحبت قطعة الخبز من مكان ما تحت الفراش واقتسمتها فيما بيننا...

في الصباح أشرقت شمس كبيرة، فارتديت ثيابي وغسلت وجهي ثم تركت قطتي السوداء نائمة وخرجتُ...

كانت المدينة تمور بالبشر، وكنتُ نقطة صمت جائعة داخل عالم متخم، ومضطرب، وكان بحوزتي بعض النقود فاشتريت مدية شفرتها حادّة برّاقة، سألني البائع:

ماذا ستفعل بها؟

فقلت بشراسة:

سأذبح قطتي المسكينة وأخلّصها من حياتها البائسة.

ابتعد البائع عني بشيء من الخوف:

حرام عليك «يا زلمي» اتركها في حال سبيلها.

فقلت:

أنت لا تعرف شيئاً عن هذه الحياة اللعينة، إذا شاهدتَ رجلاً يموت ببطء ويتألم ولا أمل في علاجه ماذا ستفعل؟

فهزّ البائع رأسه بصمت وحيرة ولم يجيب. انطلقتُ في الشارع المزدحم ثم توقفت فجأة أمام واجهة محل كبير وشرعت أتأمل وجهي في الزجاج اللامع...

هذا أنا، ملامحي تدل على أنني سأرتكب جريمة فظيعة بعد قليل، هل أنا مجرم حقاً؟

وبينما أنا واقف أتساءل مرت فتيات جميلات فابتسمتُ بغبطة وقلت وأنا أتقدم نحوهن:

هل أنا مجرم؟ انظرن جيداً إلى وجهي، وإلى هذه المدية؟

فتوقفن بغتة، في حين أضفت بهدوء:

أنا اليوم سأذبح قطتي السوداء الصغيرة التي ربيّتها على يدي.

قالت أحداهن برعب:

ولماذا؟ حرام عليك يا أخي!!

قلت بكآبة:

لقد طُردتُ من العمل منذ شهر، وأنا وقطتي نعاني جوعاً مريراً...

سأذبح القطة خير من أن يشنقها الجوع!

وابتسمتُ ببلادة حين تابعت الفتيات طريقهن مذعورات... وسألني رجل سمين وقف يستمع لحديثي منذ البداية:

وأنت ماذا ستفعل بعد ذلك؟

قلت بحسرة:

طبعاً، بعد ذلك سوف أصعد إلى بناء عالٍ وأقذف بنفسي من هناك.

فقهقه الرجل بصخب حتى امتلأت عيناه بالدموع...

خفضتُ رأسي بمرارة وسرت في شارع مؤدٍ إلى غرفتي...

كانت السماء حينذاك كالحة، ومتعبة، وكئيبة كوجهي.

صعدتُ الدرج الضيق نحو غرفتي... وسحبتُ من جيبي المدية قائلاً وأنا أتقدّم لأفتح الباب:

يا قطتي العزيزة... لقد جلبتُ لكِ الخلاص... أين أنتِ يا صديقتي؟

بحثتُ عنها...

بحثتُ كثيراً...

سألتُ الجيران وأولاد الحارة... لكنني لم أجدها...

تراها عرفت ماذا سأفعل بها؟!

أم إنّها يئست من العيش معي، فقرّرت الهرب؟!

* * *

عودة الثلج

كنتُ أحبُّ جدتي كثيراً...

وكانت تحبّني...

وذات يوم سألتها عن أمي، فقالت أن أمي سافرت مع عاصفة ثلجية.

سألت بشوق:

ومتى ستعود؟

أجابت مرتبكة:

متى ستعود... متى... متى... آه... تذكّرتُ، لقد قالت أنها سترجع حين تكبر يا صغيري، أجل سترجع مع الثلوج.

كانت أمي سمراء الوجه عسلية العينين، ذات شعر طويل أسود، وأنف دقيق، وفم باسم.

اكتشفت تلك الصفات من خلال الصور التي احتفظت بها جدتي العجوز الطيبة، ولسبب ما جميل ورائع، أنا متأكد أنها ستعود ذات يوم مع الثلوج.

ليلة أمس هطلت ثلوج كثيفة...

كفّنت شوارع دمشق وجبل قاسيون، فنهضت مسروراً وقلت لجدتي فجأة:

أمي ستعود!

ضمّت رأسي إلى صدرها النحيل:

أجل يا حبيبي، إنها ستعود، لكنك لمّا تكبر بعد!

فشعرت بالمرارة وبحرقة جارحة تملأ معدتي وحلقي، وتمنيّت لو أنني أكبر فجأة، ولم أستطع أن أنتحب، رغم محاولاتي...

جاءت جارتنا أم عبدو، المرأة العجوز أيضاً، والطيبة كجدتي، حاملة لنا صحن «رز بحليب».

فأكلتُ حتى نسيت الجمرة القابعة في داخلي، ولأوّل مرة أسألها:

عمتي أم عبدو أتعرفين أمي؟

نظرت إلي مندهشة ثم إلى جدتي!

قالت جدتي:

أجل يا صغيري، إنّها تعرفها جيداً.

قالت جارتنا بعد صمت طويل هامسة:

يا ميمتي!

التفتت نحوي لتقول:

أمك ستعود يا صغيري، لا تخف.

قلت:

أعرف، جدتي أخبرتني أن أمي ستعود ذات يوم.

وبالفعل لم أكن خائفاً، كما أنني لم أخف يوماً ما أو أقلق، ولكن، وفي هذه الليلة المثلجة، أشعر بالخوف يملأ قلبي وروحي وبقلق أخذ يكبر ويتمدد في دمي...

إنّها الواحدة بعد منتصف الليل...

جدتي تسعل وتتقلّب في فراشها الدافئ، وأنا ما زلتُ قلقاً ومستيقظاً، أحاول النوم لكي أحلم بأمي القادمة من بعيد، من وراء الجبال والسهول مع بياض الثلج...

جدتي لم تأكل رز بحليب، قالت إنّ رأسها يؤلمها وتشعر بصداع وبألم في معدتها وصدرها، صنعت لها جارتنا أم عبدو الزهورات وأعطتها قرص أسبرين.

إنها لا تزال تسعل وتتقلّب متألّمة...

في الصباح الباكر استيقظت على جلبة وحركة صاخبة وغير عادية داخل غرفتنا الصغيرة... فتحتُ عيني... كانت جارتنا واقفة

مرتبكة تنظر إلي بصمت وحيرة، فلم أنهض، لأن البرد كان قارساً ويملأ الغرفة.

سألتُ:

أين جدتي؟

أجابت وهي تدير وجهها إلى النافذة:

ستعود بعد قليل.

- إلى أين ذهبت وتركتني وحيداً؟

قالت بصوت حزين واهن:

لا تخف يا صغيري، أنا معك، جدتك ذهبت لتعود بأمّكَ، لا تخف يا حبيبي، نم ولا تخف.

فنمتُ مطمئناً، في حين غطّت الثلوج البيضاء منازل المدينة...

* * *

يا غشيم

قالت أمي:

اصطحب ابنة عمك يا ولد.

قلت:

أنا حاضر، على راسي وعيني، ولكن ابنة عمي - ما شاء الله حولا - صارت صبية؟!

أجابت أمي:

لا تتفلسف، لا يجوز أن تذهب وحيدة.

قلت:

لماذا؟ الشرطة منتشرة في كل مكان، والأمن والاستقرار يعمّ البلاد والعباد، علامَ أنت خائفة؟؟

أصرّت أمي... فخرجتُ مع ابنة عمي الطيبة... وكان المساء قد أسدل وشاحه فوق المدينة التي ارتاحت من سياط شمس النهار.

ربما تعمّدت ابنة عمي العفريتة أن تتأخر عندنا لكي أذهب وأوصلها، ولم يكن المنزل بعيداً، لكن ابنة عمي تعمّدت أن يطول مشوارنا...

سرتُ معها في طريق مليء بالأشجار والعصافير النائمة، وكان الليل هادئاً، والنجوم تبرق وتلتمع في وجه السماء كحبات من اللؤلؤ.

همستْ:

أتحب الليل يا عفريت؟

- أنت العفريتة.

- ولماذا؟

قلت:

كان يجب علي أن أكون نائماً في مثل هذا الوقت، غداً عندي دوام في المدرسة.

وأضفت بعد قليل:

وثانياً أنا لا أحب الليل يا آنسة!

ضحكت:

لأنك غشيم.

الليل هو المكان الوحيد والأمين الذي لم تخرّبه يد الإنسان بعد!

لم أفهم... هززت رأسي:

معكِ حق.

أحسست بيدها تلمس يدي فقلت:

ما بكِ؟ هل أنتِ خائفة؟

- لا بالعكس.

- إذن لماذا تمسكين يدي؟

لم تجب، ظلت عيناها تحدقان بعيني، وبقيت أصابعها قابضة على يدي الصغيرة المرتجفة...

لا تخافي يا ابنة عمي، أنا معك.

أجابت فرحة:

أعرف.

ثم أضافت هامسة بدفء:

متى ستكبر يا ملعون؟

لم أفهم أيضاً... ربما كنت صغيراً بالنسبة لها، وقد تجاوز عمرها الرابعة عشرة عاماً، وبذلك تكون أكبر مني بأربع سنوات تماماً، قلت مستغرباً:

ولماذا تريدينني أن أكبر؟ ليتني أبقى صغيراً! ضحكت مرة أخرى:

ستكبر رغماً عنك يا جحش!

فكّرتُ بيني وبين نفسي، ذات يوم سأكبر فعلاً، وسأخرج من المدرسة لأعمل وأعيل أخوتي الصغار وأمي العجوز، وبعدها ربما سأتزوج وسأنتقل لأسكن أنا وزوجتي في منزل جديد، وسننجب أطفالاً وسأتحّمل - رغماً عني أيضاً - أعباء الحياة وقسوتها.

كرّرتُ دون شعور:

ليتني لا أكبر، يا ألف ليت!

وفي زاوية معتمة وقفت ابنة عمي العفريتة ثم أشارت بأصبعها إلى شفتيها الكرزيتين:

قبّلني هنا...

شعرتُ بالبلادة والدهشة:

أين... إنّني لا أرى شيئاً!

كّررت:

هنا... هنا يا غشيم...

حاولتُ أن أكّرر استغرابي ودهشتي...

أين... إنّني...

جذبتني إليها، أحسستُ بثدييها الصغيرين يضغطان على صدري، وشفتيها الناعمتين تلتقطان بشهوة فمي الصغير...

وللحظة... حاولت التملّص... فلم أستطع، كانت هذه هي المرة الأولى التي تقبلني فيها فتاة.

وبالحقيقة كانت قبلة طويلة... لذيذة وصامتة، ورغم لذتها، شعرت أنني سأختنق... وحين هربتُ من بين ذراعيها نحو الأشجار، سمعتها تردد بعصبية:

يا جحش... يا غشيم... ستتذكّرني يا عفريت عندما ستكبر، وسوف تعود، لكنني، وبشرفي، لن أعطيك شيئاً... يا جحش... يا غشيم...

ما زال صوتها حتى الآن يرنُّ في رأسي...

* * *

خبطة العمر

ابتسم الحظ لي يا شباب، ليلة أمس وربح محسوبكم عشرين مليون ليرة. عشرون مليون يا شباب... خبطة العمر...

وأول شيء فكرت به، هو دعوة الآنسة ميساء على فنجان من القهوة.

فنجان قهوة على «رواق» أجل... فنجان قهوة، بعيداً عن زحمة البشر، وارهاقات العمل اليومي. وأنا - وأعوذ بالله من كلمة أنا - واثق ثقة عمياء من أنها ستلبّي دعوتي مغتبطة، ولا شك أنها ستكون قد شاهدت صورتي منشورة في الصحف الرسمية والجرائد والمجلات التي تهتم بأمور المال ورجال الأعمال... إنني أصعد درجاً عالياً نحو غرفة ميساء، أنا شخصياً جئت لدعوتها، ستندهش طبعاً وستشكر اهتمامي الزائد بها.

أقرع الباب... وأدخل بهدوء...

صباح الخير يا جماعة.

تعلو الدّهشة وجوه الموظفين، ويندفع نحوي بعضهم:

أهلاً وسهلاً أستاذ، تفضّل تفضّل... حلّت البركات، أقول:

شكراً، لا داعي، أنا مستعجل، لدي أعمال ضرورية، هل الآنسة ميساء موجودة؟

- نعم، استرح أستاذ، ستعود ميساء بعد قليل. استرحتُ بينما ظلّ قلبي الصغير يخفق بانتظار ضيفتي العزيزة...

وميساء موظفة حلوة، كنت قد رأيتها وأحببتها قبل أن أربح الجائزة بعدة أيام، جئت إلى هنا لتوقيع بعض الأوراق التي تنص على فصلي من العمل نهائياً نتيجة لغيابي المستمر...

أحببت الآنسة ميساء بسرعة عجيبة، لا أعرف تفسيراً لذلك، حب عميق، صامت، وربما شاركتني الآنسة ميساء هذا الحب السريع، لكنني لست متأكّداً، نظراتها كانت غريبة، طيبة وعذبة، فقلتُ بيني وبين نفسي:

وقعت البنت بالفخ يا صبي، فكّر قبل أن تتكلّم، لا تتسرّع، البنت يبدو أنها أحبّتك ويجب أن تكون عند حسن ظنّها.

وفكّرتُ فعلاً...

وحلمت بها أكثر من ألف مرة.. فكرت بها جديّاً لأنني كنت بأشدّ الحاجة إلى حبٍ ما يسند قلبي وينقذني من هزائمي وفشلي المتكرر...

ميساء جاءت...

هبط قلبي وارتفع... أنهض بثقة:

آنسة ميساء، صباح الخير.

ترد التحية مبتسمة، إذن البنت تذكرتني، أهمس:

عن أذنك دقيقة؟

وخارج المكتب أسألها:

هل عرفتني يا شاطرة؟

- طبعاً، الشاب الذي فُصِلَ نهائياً من العمل، وأصبح بين ليلة وضحاها مليونيراً.

قلت:

بالضبط، برافو عليك، ذاكرتك قوية، بعكس ذاكرتي، أنا المليونير الشاب جئت شخصياً أدعوك لنشرب فنجان قهوة على رواق.

تبرق عيناها الفاتنتان وتوافق بدلال، ثم تدخل لتجلب حقيبتها الحمراء الصغيرة، ننزل الدرج النظيف لأن المصعد كان مُعطّلاً، ماسكاً يدها الناعمة...

وفي الشارع المزدحم اصطدم برجلٍ سمينٍ، لأدرك أنني كنتُ أحلم..!

* * *

انكسار الحلم

إلى أصدقائي... دون انكسارات

أن تنام مع المرأة التي تشتهيها...

ليس أروع من ذلك أي شيء في هذا العالم...

واشتهاء النساء إحساس جماعي، فكل شخص تسيطر عليه هذه الرغبة، خصوصاً إذا كان شاباً مثلي مثلاً.

تلك الفكرة شغلت بالي فترة طويلة، إلى أن حدث ما سأخبركم به بعد قليل.

حلمتُ ذات ليلة شتائية أنني نائم إلى جانب امرأة جميلة كنت قد شاهدتها في الشارع أكثر من مرة... واشتهيتها أكثر من ألف مرة...

امرأة حلوة، جسدها شمس صغيرة من شموس أفريقيا، وكنت بارداً وجائعاً، فالتصقت بها وضممتها إلى صدري بقسوة وأنا أشهق فرحاً... وحين استيقظت صعقتني المفاجأة!

لم أصدّق في البداية...

قلت:

ربما الحلم لا يزال عالقاً في مخيلتي؟!

أغمضت عيني ثم فتحتهما، ظلت المفاجأة أمامي، دون أن تهرب أو تتلاشى... وجدت نفسي في مكان غريب أراه لأوّل مرة، غرفة ذات نافذة واسعة وستائر حمراء وسرير يتسع لشخصين.

كنتُ أنا الشخص الأول، أما الثاني فكانت المرأة ذاتها التي أخبرتكم عنها منذ دقائق، كانت منكمشة على نفسها كسلحفاة كبيرة، خائفة، مندهشة، عيناها تملؤهما حيرة وتردد وقلق، ولعدة دقائق بقيتُ صامتاً لا أعرف ماذا أفعل...

انكمشت المرأة على نفسها أكثر وسحبت الغطاء فوق جسدها،

شبه العاري، دون أن ترفع عينيها عن وجهي: كيف دخلت إلى هنا يا لص؟!

ارتبكتُ أيضاً ثم سألت متلعثماً:

آسف جداً، منذ متى وأنا هنا؟!

بارتباك شديد نهضتُ:

أكرّر أسفي يا مدام، ولا أعرف ماذا أقول لك!

وفي الطريق إلى غرفتي ازدادت دهشتي واستغرابي، كيف حدث معي كل ذلك؟! كيف؟

تذكرتُ بأنني حلمت بهذه المرأة قبل أن أنام بساعة أو ساعتين، وحين فتحت باب غرفتي وجدتُ سريري خالياً ومفزعاً إلى حد ما، فأيقنت سرّ اللعبة وندمت... أجل... ندمت وبمرارة...

لأول مرة أندم بهذا الشكل المرير، ما دمتُ احترق لضم جسدها فلماذا لم أفعل؟ لماذا؟

فيما بعد بررت ندمي بالخوف والدهشة التي أصابتني، أنا بالذات، حين فتحت عيني...

سأحاول أن أحلم مره ثانية...

ولكن قبل ذلك سأتعمد أن تراني تلك المرأة الحلوة.

بعد أسبوع تماماً رأيتها... وحين شاهدتني علت دهشة وجهها الفاتن ووقفت للحظات تتأمّلني بخوف، كأنها تعيد تفاصيل ما رأت منذ أيام قليلة... حاولت متابعة طريقها أو أن تهرب مذعورة، اقتربتُ منها وهمست:

سآتي لزيارتكِ هذه الليلة؟!

- إياك، سأطلب الشرطة وأفضحك!

قلت:

أنتِ وحظكِ، إذا حلمت بكِ سوف تجدينني في غرفتك، وإذا لم أحلم فسوف تزمطين بجلدكِ.

ردت غاضبة وبحنق:

قلت لك إياك!

- لا تخافي، سوف نتّفق.

مضت مذعورة، رغم ذلك سررّت جداً وأنا أرقبها...

ها أنا أحلم...

بالمرأة الشابة ذاتها التي لم يتجاوز عمرها العشرين، التي كانت قد تزوجت لمدة شهر أو شهرين، ثم سافر زوجها تاركاً إياها تحترق ببطء...

إنني هناك داخل الغرفة ذات الستائر الحمراء، مددت ذراعي وضممت صدر المرأة بقسوة... سمعتُ صرخة ما، فتحت عيني لأجد نفسي إلى جانبها وقد التصق جسدها العنيد بي...

قالت متوسّلة:

أتركني أرجوك؟!

لم أتركها، ولم أدعها تصرخ، التقطت شفتيها بجوع... أنّت وشرعت تذوب بين أصابعي المتمسكة بثدييها الصغيرين...

لم تقل شيئاً بعد أن انتهيت... فقط بقيت عيناها تحدّقان في وجهي بدهشة واستغراب وكأنها لا تصدق!

وأثناء عودتي إلى غرفتي الصغيرة، كان الفرح يملأ روحي ويتغلغل في أحشائي ودمي...

فيما بعد حاولتُ أن أحلم...

حاولت كثيراً...

أجبرتُ نفسي أكثر من مرة... وحبستها داخل غرفتي الصغيرة، لعلني أحلم أو أتذكّر...

لكنني لم أستطع!!

* * *

بانتظار موتي...

الموت يهمس باستمرار في أذني:
عِشْ، فأنا في طريقي إليك...

بالأمس حلمت...

وأنا شاب من هواة جمع الأحلام وتعليبها في ذاكرتي... وفي بعض الأحيان تدوينها... أملك مملكة من الطموحات والآمال المستقبلية، وليس لدي حتى الآن أي نجاح.

بالأمس حلمت... حلماً غريباً إلى حد ما، ومخيف: (رأيتُ أم عزّات، المرأة العجوز التي ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، فتحت لها باب غرفتي الصغيرة، كانت نحيفة وقصيرة أكثر ممّا مضى، عيناها كعيني جرذ عجوز).

أم عزّات امرأة انحفرت صورتها في ذاكرتي، وإنّني أذكرها تماماً وكأنها أمامي الآن:

كنا نجلس حولها - أيام الشتاء - والثلوج تهطل بغزارة مكفّنة البلدة البعيدة النائية، تقص علينا حكايات الجن والسعادين الذين

كانوا يزورونها دائماً في قبوها المعتم لأخذ رغيف خبز أو استعارة ثوب من أثوابها أو علبة الثقاب (وبابور الكاز).

وفي ليلة شتائية مثلجة جاء واحد منهم، وقالت أم عزّات وأكّدت وحلفت وأقسمت إنّه ملكهم - ملك الجن - جاء وحيداً وكانت له عينان مرعبتان كبيرتان، قال لها:

يا أم عزّات، نحن اليوم بحاجة إليكِ، تعالي واذهبي معي.

قالت أم عزّات بخوف:

لوين يا عيني؟!

- إلى مملكتنا تحت الأرض.

خافت أم عزّات في البداية، ولكنها وافقت بعد إصرار الملك، الذي أكّد لها قائلاً:

(لا تخافي يا أختي، سوف نُعيدكِ إلى بيتك سالمة).

حين فتحت أم عزّات الباب، انشقت الأرض وابتلعتها فجأة، وخلال لحظات، وجدت نفسها داخل غرفة كبيرة إلى جانب سرير تلد فوقه امرأة حلوة جداً من بنات الجن، وسمعت أصواتاً تناديها متضرّعة:

ساعدينا يا جدتي، ساعدينا أرجوك...

وبالفعل ساعدت أم عزّات المرأة الصبية التي كانت تلد...

بعد ذلك وجدت أم عزّات نفسها - دون أن تدري كيف - داخل قبوها المعتم!

كانت أم عزّات تخبرنا وتضحك، وكنتُ أشعر بالخوف والقلق ولا أجرؤ بقية السهرة على أن (أتحلفص) أو أشاغب، وكنت أصطحب أمي معي لتقف أمام باب المرحاض كحرس ريثما أفرغ مثانتي من الخوف.

حين كبرت، كانت صورة القبو لا تفارق ذاكرتي:

غرفة طويلة معتمة، وشاحبة، في صدرها، وفوق فراش سميك، تجلس أم عزّات، وأمامها عدّة المتّة، تنتظر حضور الجن والسعادين...

قبل أن تموت أم عزّات بيومين، أخبرتنا أنها حلمت برؤية زوجها الميت منذ عشرين سنة واقفاً أمام قبوها يردّد:

هيا يا امرأة، حضّري حالك، يجب أن تذهبي معي، لقد حان موعد رحيلكِ؟!

وجدَ الجيران أم عزّات بعد يومين تماماً ميتة داخل قبوها المعتم!!

وقد حلمتُ بالأمس بأم عزّات...

كانت واقفة أمام باب غرفتي الصغيرة...

رأيتها من النافذة، حاولتُ الاختباء، لكنني سمعتها تردّد:

هيا، لا داعي لأن تختبئ يا ملعون، لقد رأيتكَ يا سعدان، هيا، فقد حان موعد رحيلك عن هذا العالم...

* * *

هذا المساء

كم أنا كئيب يا حبيبتي هذا المساء!

وكم هي السماء متعبة وضيقة في عيني العسليتين.

كآبتي هذا المساء أكبر من حزن أمي، ومن كآبة جيراننا الفقراء...

لم أكن أعرف أنني أملك كل تلك القدرة على الكآبة.

هذا المساء عدت متأخراً جداً إلى غرفتي الصغيرة ذات الجدران الشاحبة، وفي الشارع، لفّني البرد وكفّنتني ريح الخريف وعتمته الموحشة، وعوى بداخلي الذئب...

لقد اعتدت سماع ذاك العواء، واعتدتُ أيضاً على شتمه وزجره:

اسكت أيها الذئب، لا داعي لتثير قلقي ولتزيد حزني حزناً؟!

فيما مضى كان يوافقني فيهدأ ويصمت، لكنه خلال الأيام الماضية، أخذ يزيد من عوائه، ويزمجر في أذني...

هذا المساء ازداد عواءه وشرع يعلو ويعلو ليملأ الشوارع والأزقة...

وفي غرفتي الكئيبة قفز الذئب من داخلي واستعدّ لمهاجمتي، وقد بانت أنيابهُ البيضاء الحادة، وسمعته يهدّد:

إذا لم تخلّصني من هذه الكآبة، فسوف أفترسك؟!

كم أنا كئيب هذه المساء...

وقد انقضّ الذئب علي منذ لحظات وافترسني، وافترس رغبتي، وكل أحلامي، والطموحات التي كنتُ أستعدّ لتحقيقها!!

في اليوم التالي لم أذهب إلى العمل، وقد وجد رجال الشرطة جثتي منهوشة داخل غرفتي الصغيرة!

* * *

في تلك الليلة

كانت أمي العجوز تحب النوم كثيراً...

وكنتُ أحسدها على هذه الميزة العجيبة، فهي لا تنهض إلّا عند الضرورة، لدرجة أنني أقوم بأعمال المنزل على أكمل وجه:

أمسح زجاج النوافذ والسجادة الحمراء، وأشطف الدرج والشرفة الصغيرة، وأحياناً كثيرة أطبخ، ونحن - أقصد أنا وأمي - نسكن داخل غرفة صغيرة من غرف المدينة، ورغم صغرها كنت أجد صعوبة في تنظيفها، وأرتبك أحياناً في ترتيب أثاثها البسيط، وكان الشيء الوحيد الذي لا يمكن إلّا أن تراه هو ذاك الغزال الحزين دائماً، وهو تمثال احتفظت به أمي منذ طفولتها، كانت تقول لي باستمرار:

هذا الغزال هدية من جدك، إذا مت احتفظ به أمانة برقبتك، وكان التمثال يحزنني ويبعث في نفسي الخوف والقلق من الآتي، فأحاول أن لا أنظر إليه عن قصد.

لم يخطر ببالي أن أسأل أمي عن سبب هذا الحزن العميق في عيني الغزال، لكنني، ومنذ أيام قليلة، أيقظتها لأسألها، نهضت بكسل وتثاءبت ثم حدّقت إلى الغزال وأجابت:

الغزلان دائماً حزينة يا بني، لأنها مهددة بالخطر من قبل الإنسان والحيوانات المفترسة، لذلك تبدو الدموع في عينيها وكأنها تبكي على حياتها التي لن تدوم طويلاً.

عدت متأخراً هذا المساء...

كانت والدتي العجوز نائمة كالعادة، أو هكذا بدت لي،هادئة وساكنة أكثر من أية ليلة مضت.

أكلت بشراهة لأن الجوع عضّني اليوم بقسوة ونهش معدتي، لم أوقظ أمي، تعمّدت هذه الليلة أن لا أزعجها.

في ساعة متأخرة من الليل انسلّيت إلى فراشي ببطء وهدوء، وأثناء ذلك لمحتُ الغزال الوديع القابع فوق الطاولة وقد امتلأت عيناه بدمعتين كبيرتين!

فيما بعد عرفتُ أن الغزلان يمكن أن تحزن وتبكي على الأشخاص الذين عاشت معهم...

آه... تذكّرت:

على فكرة، لقد نسيتُ أن أخبركم أن أمي العجوز ماتت في تلك الليلة!

* * *

الساعة الملعونة

تك... تك... تك...

أسمعها تتكّ داخل رأسي وبين ضلوعي... وأسمع كل شيء يتك من حولي تكّات متواصلة غير منقطعة..

حتى بائع البطاطا في الشارع الطويل يتك بدلاً من أن ينادي:

بطاطا... بطاطا...

وبائع البندورة يتك... وعربة البطيخ تتك... والسيارات... وزبائن المقهى وإشارات المرور ورجال الشرطة، ودور السينما تصدر الصوت نفسه والنغمة ذاتها:

تك... تك... تك...

هذه الساعة الشيطانية المعلقة فوق سريري، تتك بداخلي، وإذا استمرّت هكذا فسوف لن أتوقّف لحظة واحدة عن سحقها تحت قدمي...

ستصرخ أمي بوجهي:

ماذا فعلت يا مجنون؟

وسيتأخّر أخي عن الدوام، أو أنه سيذهب باكراً، ولست أدري ماذا أفعل؟ أحطمها؟ لا... نعم... لا... وحيرة وتردد وقلق تسيطر وترفرف فوق رأسي...

أعرف أن عقابي سيكون شديداً لو فعلت وحطّمتها، سيطردني أخي من المنزل - كما فعل في المرة الأولى - فقد حدث ذات يوم وحطمت ساعة كبيرة كانت معلّقة على الجدار، تناولتها ورميتها من النافذة إلى الشارع الطويل، فاصطدمت برأس بائع البطيخ، أُسعف على إثرها إلى المشفى... ولمدة شهر لم أعد أسمع صوت البائع، كما أن بقية الباعة غادروا الشارع إلى شوارع أخرى...

وبعد التحقيق، سُجّلت القضية ضد مجهول، وعدت إلى البيت بعد ثلاثة أيام، فوجدت أخي قد أحضر ساعة أكبر من الساعة السابقة، ولها صوت أقوى وأشدّ.

حذّرني قائلاً:

هذه المرة أسقطها على رأس بائع البطاطا أو بائع البندورة، لا فرق أخي، المهم أن تصيب رأساً ما.

وصمت لحظة ثم تابع:

هل رأيت يا عفريت:

بائع البطيخ لا يزال في المشفى!

- ٢ -

تك... تك... تك...

وكل ما حولي يتك، الكتاب، الدفتر، الأقلام، الشارع الطويل، والمارة وأمي وجميع أخوتي والجيران...

لعن الله الساعات، لماذا لا يصنع الإنسان ساعة تسير عقاربها بصمت؟!

طلبت من أخي أن يبيع ساعته الشيطانية، لكنه اشترط وهو يضحك من كلامي:

أبيعها أخي بشرط أن أعلّقك مكانها، موافق؟

فكرت بكلامه، تصورّت نفسي معلقاً على الجدار، شيء مضحك، يطلب مني أن أكون مكانها، وأنا لا أطيقها ولا أتحمّل تكاتها، قال يعلقني مكانها قال؟!

وزاد على ذلك:

وأن تتك أيضاً، فما نفعك إذا كنت أخرس؟!

أنا معلق على الجدار، وأتكّ أيضاً، يا سلام سلّم...

تك... تك... تك...

ولم يبعها، ظلت تتك بداخلي وفي رأسي، ومع كل تكة، كانت نهاية صبري تقترب، لم أستكن، ولن أستسلم، فلا بدَّ وأن يأتي يومكِ أيتها الساعة الملعونة!

-٣-

ذات صباح، نفد صبري، لم أستطع تحملّها أكثر، تكت بشكل جنوني، نهضت عن الفراش وأسرعت نحوها، كان أخي وأمي في الغرفة المعلّق على جدرانها تلك الساعة، دخلت دون أن ألقي تحية الصباح، قفزتُ كالمجنون... تناولتها بأصابع قاسية:

تعالي يا حبيبة عمري، تعالي... أنا أحبّك جداً، سأعلّمك فن التكتكة... فقد جاء دوري لأتك بدلاً عنكِ. وضعتها تحت قدمي، وأمام نظرات أخي وأمي واندهاشهما بدأت أسحق الساعة مصدراً مع كل ضربة فوقها صيحة انتقامية:

تك... وتك... وتك...

* * *

الغابة

كان بيتنا الصغير يقع في آخر البلدة، وكان أبي قد بناه بعرق جبينه وعرق جبين أمي، وكانت أمي الحزينة دائماً، قد أخبرتني أنها ساعدت والدي في بناء البيت الصغير، فكانت تحمل اللِّبن المكوّن من روث الحيوانات والتبن من أول البلدة، تنقله على كتفيها طوال النهار...

وهكذا، وبعد مرور عدة أعوام، نبت عند حافة البلدة الغربية بيت ترابي صغير احتضن أبي وأمي.

وهناك كانت ولادتي...

بيتنا مكوّن من غرفتين ومطبخ صغير منفصل، إضافة إلى المرحاض الذي كنت أجد صعوبة وخوف في الذهاب إليه، وخصوصاً أيام الشتاء، وكان أقرب منزل من منازل البلدة يبعد عنا حوالي ربع ساعة على ظهر الحمار، كانت البيوت بعيدة، وكنّا منعزلين تقريباً نحن العائلة الصغيرة، وقد سمعت والدي يقول أكثر من مرة:

ليس المهم أن نكون بعيدين أو قريبين من البلدة، الأكثر أهمية هو أن نحافظ على إنسانيتنا وكرامتنا، ولسبب ما كنت أصمت مفكّراً بكلامه دون أنا أدرك ماذا يقصد.

ولِدتُ هكذا، بيتنا صغير ويقع في نهاية البلدة، مكوّن من التّبن وروث الحيوانات، وكان سقفه بساطاً من القصب الأصفر الطويل والمفروش فوقه طبقة سميكة من الطين...

وكان لأبي حمار هزيل، أغبر اللون، عيناه نجمتان سوداوتان جاحظتان كعيني أبي، الذي كان يذهب على ظهر الحمار كل صباح إلى الغابة لنقل الأخشاب إلى بيوت البلدة لبيعها...

هكذا طوال النهار...

حتى تغيب الشمس، فيعود إلينا، حاملاً في خرج الحمار الطعام والفواكه...

وكنت، بطفولتي الساذجة وحركاتي العابثة، أعبّر عن فرحتي بعودته، فأهرع إليه قبل أن يصل وأدور حول الحمار عدة دورات، فينزل أبي، ثم يقبلني ويحملني ليضعني على ظهر الحمار، وكان الحمار يفرح بوزني، فتتّسع عيناه ويرفع رأسه، ثم يلتفت إلي فألاحظ في تلك اللحظات أنه يبتسم، فينهق بهدوء متابعاً طريقه، ويسير والدي خلفنا وهو يرقبني بحذر...

علامتان كنت أفرح بهما كل مساء:

عودة والدي، والركوب على ظهر حمارنا الهزيل والمتعب.

كنا في الليل نجلس أنا وأمي أمام والدي كتلميذين مؤدبين، وكان والدي حينذاك يخبرنا عن حيوانات الغابة وطيورها، وكان في داخلي شوق شديد لأن أذهب إلى هناك لأتعرّف على تلك الحيوانات وعلى ذاك العالم الأخضر الجميل، وقد وعدني أبي أكثر من مرة أن يأخذني معه، لكنني كنت أستيقظ بعد ذهابه بعدة ساعات، فأركض إلى النافذة وأنا أصيح:

أمي... يا أمي... لماذا لم توقظيني؟ ها... لماذا؟

وكنت أزمجر كنمر صغير واقع في شبكة صياد، لكن زمجرتي ما تلبث أن تتلاشى وأنا أستمع لأمي:

لقد أيقظتك يا سندي، لكنك لم تنهض، كل الحق عليك!

بقي شوقي يكبر ويزداد لرؤية الغابة، وذات يوم حلمت حلماً رائعاً:

كان الصباح لا يزال يولد بهدوء، رطباً ونديّاً، وكنت راكباً على ظهر حمارنا وأمامي يسير أبي بجسده المنهك، وعلى حين غرة، ظهرت أشجار كثيفة عالية، وطيور عديدة ملوّنة، تغرد هنا وهناك...

إنها الغابة!

قال والدي ذلك، فنزلت عن ظهر الحمار وشرعت أركض فوق العشب الأخضر الطري، ومن فوقي سماء رحبة صافية امتلأت بأشعة صفراء وطيور كبيرة... آه... ما أجمل أن يكون كل العالم كهذه الغابة! قلت ذلك ثم... استيقظتُ...

كان الحلم لا يزال عالقاً داخل رأسي، فانسلّيت بحذر إلى الغرفة المجاورة واقتربت من سرير والدي: أبي... أبي...

- ماذا تريد؟ بسم الله الرحمن الرحيم... لماذا لم تنم بعد؟!

- لقد نمت. لكنني..

- لكنك ماذا؟ ها؟... هيا اذهب إلى فراشك!

- لا أريد.

قال بلطف:

قلت لك اذهب إلى فراشك يا حبيبي.

- وأنا أقول لك لا أريد.

ثم أضفت بعناد:

أريد أن أذهب إلى الغابة!

نهض والدي، ونظر إلى ساعته المدورة الكبيرة:

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل!.

لا يجوز أن نذهب الآن.

قلت حائراً:

ولماذا؟. ها... لماذا؟؟

- لأن الغابة تكون نائمة، لم أتعوّد أن أذهب إليها وأزعجها.

وتابع وهو ينظر مرة ثانية إلى ساعته: اذهب يا صغيري إلى فراشك، وفي الصباح نذهب معاً.

- سوف أذهب معك.

- طيّب.

- وسأركب على ظهر الحمار؟

- طيّب، اذهب الآن يا حبيبي، هيا، هيا يا شاطر.

ذهبتُ لأنام مسروراً، فرحاً... لكنني في الصباح لم أستيقظ، فقد ذهب أبي و تركني نائماً...

* * *

بقايا حلم...

تظل هناك حقيقة يأبى تاريخ الفكر إلا أن يزيد من تكريسها ورسوخها وهي إن الأديب يظل يمنح مادام نسراً حراً وإذا رضي هذا النسر بأداء مهام الحمام الزاجل يسقط ريشه ويضمر جناحاه ويستحيل منقاره إلى كف تتسول.

غادة السمان

أذكر أنه كان حلماً في البداية... فذات ليلة حين كنت نائماً خرج شيء هلامي من داخلي وشرع يرفرف فوق الشوارع كعصفور مرح...

إنه أنا!

رحتُ أسيرُ تحت سماء ملبدة بغيوم ماطرة، وخطر في ذهني أن أدخل إلى حديقة عامة فدخلت، وكانت السماء تمطر رذاذاً خفيفاً...

لم أر أي إنسان داخل الحديقة، وحين جلست تناهى إلى سمعي وقع خطوات بطيئة تقترب، ثم أحسست بيد ناعمة كالرماد ودافئة كالجمر تقبض على كتفي برفق.

مساء الخير... ماذا تفعل هنا أيها الشاب؟

استدرت ملتفتاً:

يا إلهي! إنّها ملاك ربما نزلت مع الأمطار من كبد السماء!

- ما بك؟ لماذا تحدّق إلي هكذا، هل أنت خائف؟ قلت مرتبكاً:

جمالك غريب أيتها الشابة، هل أنت من الملائكة؟

ابتسمت بوداعة ثم جاءت لتجلس قربي.

- لم تقل لي ماذا تفعل هنا تحت المطر؟

قلت وقد ملأني صوتها دفئاً وحناناً:

أبحث عن رفيق مخلص، فقد سئمت الحياة وحيداً، حدّقت في وجهي كأنها لا تصدّق.

كانت وديعة ورائعة كقمر فضي متلألئ...

فلم أرغب بأن أقول شيئاً، فقد شعرت وهي تتأمّلني بحب عارم يتدفق دفعة واحدة إلى قلبي الصغير. همست بعد صمت: من أين جئت أيتها الساحرة؟ ضحكت:

أسكن مع والدي العجوز هناك...

رفعت يدها وأشارت نحو كوخ يقبع في نهاية الحديقة، كوخ مضاء بمصباح أصفر شاحب، ثم أضافت وكأنها عرفت أنني سأسألها عن سبب وجودها هنا:

منذ عدة سنوات جئنا إلى هذه المدينة، والدي العجوز يعمل كحارس ليلي هنا.

قلت مندهشاً:

وأنت!؟ تنهدت وخفضت رأسها بأسى مجيبة بمرارة وحرقة تملأ حنجرتها:

إنها قصة طويلة...

وهدر شيء ما في باطن السماء، ورشقت الغيوم المدينة بوابل من المطر، فأمسكت الشابة يدي وقالت وهي تقف:

تعال بسرعة... أبي ينتظرني هناك...

لكنني لم أذهب معها، بل عدت إلى غرفتي فجأة، وما أن دسست نفسي داخل الجسد الممدد فوق السرير حتى فتحت عيني ونهضت مذعوراً وأنا أتلمّس كتفي.

ظلت السماء تمطر طوال النهار، وبقيت الغيوم واقفة هناك تحدّق إلى المدينة بآلاف العيون، وشرعتُ وأنا أتأمل خيوط المطر أعيد تفاصيل الحلم...

بعد عدة أيام، وفي منتصف الليل، خرجت لأتسكّع تحت المطر، تاركاً جسدي فوق السرير.

آه إنّها نفس الحديقة، أجد نفسي هناك، أدخل مسرعاً كأنني على موعد هام فوق ذاك المقعد الخشبي... أجلس قليلاً، أسمع وقع الخطوات نفسها وأشعر بيد ناعمة تستريح فوق ذراعي، ألتفتُ، أجد نفسي من جديد أمام الوجه الملائكي.

- كنت أعرف أنك ستعود... تبتسم بدلال ثم تتابع: تعال معي أبي يريد أن يراك... أنهض دون أن أجيب وأتبعها مسروراً... وكانت السماء تمطر بهدوء وكسل... ها أنا أدلف إلى كوخ صغير يجلس بداخله عجوز هرم أصلع الرأس وديع العينين، إنه يقف مبتسماً ابتسامة رقيقة:

مساء الخير

يرد العجوز بمرح:

أهلاً أهلاً... تفضّل

جلست فوق فراش قرب مدفأة تئن كعجوز تموت ببطء.

- أبي: هذا الشاب كنت قد رأيته يتردد إلى هذه الحديقة ويجلس تحت المطر.

قال العجوز مستغرباً:

تتنزّه تحت المطر؟

فابتسمت هازاً رأسي:

أجل، إنها هوايتي، وحاولت أن أسأل عن سبب مجيء العجوز مع ابنته الصبية إلى هذه المدينة، لكنني وجدتُ نفسي أركض عائداً إلى غرفتي... فقد شرع الفجر يولد من قلب السماء ومن وراء الجبال والهضاب البعيدة...

ارتديتُ ملابسي وخرجت أبحث عن الحلم، فقد تملّكني إحساس عميق بأن ما أحلم به هو حقيقة ولا بدَّ أن يكون هناك داخل حدائق هذه المدينة الواسعة مثل تلك الأشياء التي تراودني:

مقعد خشبي، كوخ قديم، حارس ليلي مع ابنته... جبت المدينة ودخلت أكثر من حديقة لكنني لم أجد ما أبحث عنه.

حلمت أيضاً مرة أخرى... كانت السماء تمطر بجنون هذه المرة، وها أنا أجلس مع الفتاة والعجوز، نحتسي الشاي وذلك بعد أن تركت جسدي ممدّداً داخل غرفتي الصغيرة. قالت الفتاة: أود أن أخبرك قصتنا؟ قلت ملهوفاً: يسعدني سماعها. هيا تكلمي. بعد قليل شرع العجوز يحكي... «نحن من قرية بعيدة تركتها وجئت مع ابنتي لنسكن في هذه المدينة بعد أن بعت منزلي...» - ولماذا؟. نظر العجوز إلى ابنته وكأنه يريد أن يأخذ الموافقة على الإجابة. ثم تابع: لم نرغب أن يحدث مشاكل بعد أن رفضت ابنتي الموافقة على الزواج من أحد الأقرباء. بصراحة. إنها لا تحبه. قلت: ولكن هل هذا السبب أجبرك أن تبيع المنزل وترحل؟!

- نعم، فقد هدّد الشاب بقتلنا وإحراق منزلنا! وحاول معاكسة ابنتي في الشارع أكثر من مرة... بعد أن انتهى العجوز من حديثه تأملت الشابة الحلوة وقد بدا على وجهها أنها ستقول شيئاً ما كالسر، وعندما بدأ الفجر يولد تركت الحديقة عائداً إلى غرفتي لكن الشابة كانت قد دست بيدي ورقة صغيرة، وحين دخلت جسدي وفتحت عيني كنت أمسك بورقة صفراء شاحبة، حدقت بها... يا إلهي إنها نفس الورقة التي أعطتني إياه ابنة العجوز الحلوة، تحسّستها من جديد لأتأكد إنها نفس الورقة تماماً، وبسرعة عجيبة فضضتها ملهوفاً... كان الخط جميلاً ناعماً، قرأت بصوت مسموع: أحبك.

كانت الكلمة مكتوبة على نحو يوحي بالسرعة والارتباك، حاولت إقناع نفسي أنني أحلم، لكن الورقة كانت أكبر دليل على أن ما كنت أحلم به راح يتحول إلى حقيقة. قرأت الورقة عدة مرات دون أن أعرف ماذا أفعل؟! زرت الشابة الجميلة (حبيبتي) عدة مرات والتقيتها تحت الأشجار، صارحتها وصارحتني، وقبلتها أكثر من ألف مرة، إلى درجة أنني كنت أحياناً عندما أعود إلى جسدي أجد سروالي مبلّلاً... كانت كزهرة برية نادرة ذات رائحة لذيذة منعشة ووجه ملائكي، وهي تشبه إلى حد بعيد الصورة التي طبعتها جدتي في ذاكرتي عن جنيّة أحبت شاباً

جميلاً من المدينة وفيما بعد خطفته وهربت به إلى أعماق البحر، وكنت كلما رجعت إلى غرفتي أشم دائماً تلك الرائحة المنعشة الشهية التي تركتها حبيبتي فوق ثيابي، وذات يوم اكتشفت في المكان الذي كانت قد وضعت يدها عليه آثاراً لأصابعها، كانت الأصابع مرسومة بدقة واضحة فوق الجلد، فحرت في أمري وبدأ القلق يراودني ويتسرّب إلى قلبي حذر وخوف، لكنني رغم قلقي وخوفي، كنت أجد متعة لذيذة في لقاء تلك الصبية الحلوة.

هطل الثلج كثيفاً بعد المساء، وفي ساعة متأخرة من الليل تركت كعادتي جسدي وغرفتي ثم خرجت للقاء حبيبتي... أصبحت مغرماً بالنوم بشكل لا يصدّق... حتى النهار كله كنت أقضيه ممدّداً فوق السرير في محاولة كانت تنجح للنوم... ها أنذا أدخل الحديقة، يطالعني وجه الصبية الحلوة الوديع، وكان الثلج يتساقط... قالت بفرح: إنه الثلج أسرع أسرع أبي ينتظرك.. وأسرعت فعلاً... كان العجوز يحتسي شاياً ساخناً قرب المدفأة وحين جلست دفع نحوي كوباً ساخناً:

تفضّل.

مددت يدي... حاولت إمساكه، لكنه سقط فجأة... وسمعت شيئاً ما ينكسر، وشعرت بسائل ساخن جداً يندلق فوق أصابعي...

بسرعة البرق عدت إلى غرفتي وفتحت عيني متألماً ثم حدقت إلى أصابعي..

كان الجلد قد تقلص وقد بدا عليه إنه احترق فعلاً منذ عدة لحظات، واستطعت أن أشم رائحة الشاي ممزوجاً برائحة احتراق جلدي وبتلك الرائحة النادرة المنبعثة من ثياب حبيبتي...

ذات يوم لم أستطع النوم فيه، فخرجتُ لأتسكّع في شوارع المدينة...

وبينما كنت أسير فوق شارع عريض لمحت مجموعة من الرجال يحملون رجلاً ما وينطلقون به خارجين من إحدى الحدائق العامة...

عندما زرت الشابة ليلاً أخبرتني بحزن عميق وأسى أن والدها العجوز قد توفي، فصرخت مذعوراً مرتبكاً:

كيف؟ ومتى؟!

لم تدم زيارتي إلّا عدة لحظات عدت بعدها إلى غرفتي بسرعة عجيبة، وهناك فوق السرير، استيقظت مرعوباً مرة أخرى ورحت أصرخ واستنجد طالباً المعونة...

خرجت من الغرفة وشرعت أركض في الشوارع مذعوراً حائراً محاولاً إعادة صورة ذاك الشارع الذي رأيت فيه الرجال يحملون ذاك الرجل المجهول.

طوال الليل وأنا أبحث وأركض..

ولد الصباح وانتشر ضوء حزين فوق المدينة، وكنت لا أزال أركض تحت الثلج البارد بثياب النوم حافي القدمين...

- أرجوكم ساعدوني؟!

ظنوا أنني معتوه أو مجنون هرب من مشفى الأمراض العقلية فلم يكترث لوجودي أو لصراخي أحد.

في حديقة منعزلة رأيت عدة رجال ينتزعون أخشاب كوخ قديم... ركضت إليهم... أرجوكم يا شباب لمن هذا الكوخ؟

رد أحدهم:

ولماذا؟ هل يهمك أمره؟

قال آخر:

دعه ولا ترد عليه، يبدو أنه معتوه!

قلت متضّرعاً:

أرجوكم يا جماعة صدقوني أنا لست معتوهاً ولا مجنوناً، فقط أريد أن أعرف لمن كان هذا الكوخ؟

- إنه لرجل عجوز مات الليلة الماضية!

قلت متوسّلاً:

أين تلك الشابة التي كانت تسكن معه، شابة جميلة وغريبة إلى حد ما؟

- هل تعرفها؟

- نعم... أرجوكم أين هي؟

رد أحدهم بملل:

لقد رحلت منذ ساعة تقريباً.

قلت مندهشاً:

إلى أين؟ هل تعرف؟

- لا، قالت أنها سترحل.

تركت الرجال يتابعون تهديم الكوخ، وانطلقت في شوارع المدينة كمجنون كبير، باحثاً عن حبيبتي الراحلة...

* * *

فراشات الثلج

انتظر عمر مجيء الثلج بكل شوق ولهفة...

تذكر وهو يقف خلف زجاج النافذة حكايات جدته العجوز وقصصها عن الوعول والثعالب والذئاب الجائعة التي كانت تهاجم القرية باحثة عن طعام يُسكت جوعها.

كانت العجوز تحكي لحفيدها عما في الغابات والجبال والسهول من أسرار... وحدث ذات مساء وأخبرته عن فراشات الثلج كيف جاءت مرفرفة بأجنحتها الزرقاء الشفافة بعد هدوء عاصفة ثلجية غطت القرية وسطوح المنازل القرميدية... كان ذلك منذ زمن بعيد حين كانت الجدة طفلة وهي لا تزال تذكر سكان القرية الطيبين كيف استيقظوا ذات صباح شتائي على حفيف أجنحة لفراشات تملأ جسد السماء...

وحين خرجوا أدهشهم المشهد من شدة جماله وروعته، كان هنالك على صفحة السماء الهادئة مجموعة من الفراشات ذات الأجنحة الزرقاء ترفرف فرحة وترقص فوق الحقول والمنازل ذات السطوح القرميدية المغطاة بالثلج الأبيض الناعم وقد استغرب

بعضهم وعلت الدهشة وجوههم كيف أن الفراشات تأتي في فصل الشتاء وفي جو مثلج بارد.

لكن عجوزاً هرماً يبدو على وجهه أنه عاش أكثر من مئة عام ردّ على استغرابهم:

لا تندهشوا يا جماعة، فقد زارتنا هذه المخلوقات الوديعة ذات يوم ثلجي غطى فيه الثلج أجساد المدن والقرى والسهول والجبال، حتى أن بعضهم قال إن الثلج وصل حتى الصحراء، لا تستغربوا، إنها مخلوقات رائعة تبشّر بسنة مليئة بالعطاء والسلام والمحبة، وقد قطعت الفراشات رحلتها فوق القرية وحقولها المفروشة بالثلج بأمان تتبعها العيون وهي تبرق من شدة الفرح والسعادة.

وذكرت الجدة لحفيدها أن ذاك العام كان أكثر الأعوام خيراً وعطاءً، فقد عمّ السلام دول العالم وجميع القرى والمدن وعمّت الحفلات والأعراس كل البيوت...

تنّهد عمر وهو يتأمل حبات المطر وهي تنقر زجاج النافذة وهمس:

آه ما أروع أن يتحول هذا المطر إلى ثلج أبيض يملأ الكون ويغطي الحقول وقمم الجبال العالية!

وبعد أن قبّل الصغير جدته الحنون ذهب لينام، وما أن أطبق عينيه حتى شاهد أسراباً لا حصر لها تملأ وجه السماء الواسعة، ولسبب ما استيقظ وركض ملهوفاً إلى النافذة..

كان الليل قد خيّم على صدر القرية النائمة... ومن خلال العتمة الخفيفة، استطاع عمر أن يلاحظ قطعاً بيضاء صغيرة تعلق على الزجاج، وفجأة أسرع الفرح إلى صدره الصغير وملأ كيانه، فقد كانت السماء تثلج فرحة.

فتح النافذة، شهق مسروراً وهو يرتدّ إلى الوراء، ثم وبشكل عفوي، هرع إلى فراش جدته حائراً بالفرحة التي عمّت قلبه الصغير:

جدتي... جدتي انهضي يا جدتي بسرعة... انهضي وانظري إلى السماء... إنها تثلج يا جدتي، تثلج... تثلج...

ولم يصبر الصغير ليعود مع جدته إلى النافذة، بل عاد راكضاً وكأنه يخاف من أن يهرب أو يتلاشى هذا المنظر البديع، فشرع يتأمله بغبطة شديدة، وعندما جاءت الجدة، وقفت خلفه وضمت رأسه بين يديها الدافئتين، قال عمر هامساً:

جدتي... هل ستأتي الفراشات ذات الأجنحة الزرقاء؟ هل ستزورنا؟

قالت الجدة بحنان وقلبها ينبض بالأمل:

طبعاً يا صغيري، سوف تأتي لزيارة هذا العالم، إنها آتية لا ريب!

وفرح عمر كثيراً... وحين عاد إلى فراشه الصغير ونامت الجدة، تذكر أنه لم يغلق النافذة، فشعر بالفرح يزداد بداخله ويكبر:

الفراشات ستدخل المنزل... ستدخل... نعم وسوف ألعب معها ولن أطردها... آه كم أنا متلهّف لرؤيتها!

ونام عمر حالماً بصباحٍ مليء بفراشات كثيرة تتدفّق من كل مكان في السماء لتملأ كل العالم...

* * *

قبلة واحدة فقط

كان اللقاء عجيباً هذه المرة..

وأذكر عينيها الجميلتين ورغبتها السرية لاحتضاني أو لابتلاعي! والساعة أصبحت التاسعة مساءً من شهر تموز، وامرأة خالي تصّر على أن تبقى رحاب عندهم هذه الليلة، ورحاب تؤكد على أن عودتها إلى المنزل ضرورية هذه الليلة رغم سفر زوجها، إنه في رحلة رسمية لمدة عشرة أيام، عشرة أيام دفعة واحدة، ورحاب ستبقى وحيدة مع رغبتها وجوعها عشرة أيام، يا سلام، وأنا أيضاً وحيد وهذه فرصتي أو فرصتنا لكي نطفئ أنا ورحاب رغبتنا السرية جداً... والطويلة جداً.

هل توصلني؟

قلت:

إلى أين

ردّت رحاب:

إلى أين يعني؟ إلى البيت؟

قالت امرأة خالي:

لا تصدّقها إنها تمزح معك، رحاب ستبقى عندنا هذه الليلة.

أجابت ابنة خالتي التي لم يمض على زواجها عدة أشهر:

لا، أنا لا أمزح، لدي أعمال ضرورية يا ماما هذه الليلة. قالت ذلك ونهضت ثم ودعت أمها ببرودة. وغمزتني...

عيناها غابتان من النجوم، وفمها قطعة حلوى شهية، وكنت جائعاً جوعاً مريراً وبداخلي يعوي قطيع من الذئاب المتوحشة. وفي الطريق الترابي تجرأت وأمسكت يدها، قالت بخفوت وهي تبتسم:

عيب عليك! استح، سيرانا أحد ما!؟

قلت: اطمئني، لا أحد سيرانا سوى النجوم ودرب التبانة.

ضحكت فضغطت على يدها الحريرية مقترباً منها... واستطعت كلص حذر أن أسرق قبلة من شفتيها السكريتين...

قبلة واحدة طويلة ولذيذة...

قبلة كانت بالنسبة لي جزءاً من أحلامي وطموحاتي المستقبلية... آه كم أنا بطل بالفعل، وكم كنت جريئاً ذاك المساء، لقد كسرت بسبب إرادتي القوية ذاك الجدار الزجاجي الذي كان بيني وبين رحاب، بقيت ممسكاً يدها حتى وصلنا المنزل.

وأمام الباب سرقت قبلة أخرى وكدت أن أسقط مغمياً علي من شدة الفرح والغبطة، أمسكتني رحاب من ذراعي وسألت مندهشة:

ما بك؟ لماذا تهتز هكذا؟!

وبالفعل شعرت بدوار خفيف ولذيذ داخل رأسي وكأنني شربت خمور العالم كلها... وقبل أن تفتح رحاب الباب سقطت على الأرض...

في المشفى سمعت امرأة خالي تقول:

قلت لكِ ابقي عندنا! شرّفتي يا آنسه! الزلمي لا يزال مغمياً عليه!

شرحت رحاب أنني كنت طبيعياً طوال الطريق، لكن شيئاً ما حدث أمام باب المنزل.

سألت امرأة خالي:

شو حدث يعني؟!

فتحتُ عيني بهدوء، رأيت رحاب تحدّق بوجهي بحب وغبطة وفي عينيها الوديعتين ملايين الضحكات... ثم سمعتها تقول:

الحمد الله على السلامة.

وحين حاولتُ التّكلم، عجزت.

كنت متعلّقاً برحاب بجنون سري كرغبتي... وأراها في أحلامي باستمرار، وفي يقظتي بين الكتب والدفاتر وعلى الطاولة والنافذة وسطوح الجيران...

قالت امرأة خالي متضرعة:

يا دكتور الزلمي مربوط لسانه؟!

- لا تخافي يا خالة، حالته جيدة، اطمئني.

حاول الطبيب التكلم معي دون جدوى، وقد ملأت ضحكات رحاب المشفى وسط استغراب المرضى.

سألت أمها بحنق ممزوجاً بالحزن:

يا عفريته، ابن خالك يموت وأنت تضحكين، ماذا ستقول عنك الناس؟ ها؟ ماذا ستقول؟

حاولت رحاب أن ترد على أمها لكنها لم تفعل رغم محاولاتها..

وما زالت حتى اليوم، وكلّما شاهدتني ابنة خالتي العفريتة تغمزني وتضحك...

وما زالت جميلة...

وما زلتُ أحبّها...

* * *

بين الحلم والحقيقة

رحل الصيف سريعاً هذا العام...

وفي أوائل أيلول عادت السيدة فريال الشابة الأنيقة ذات العينين الوديعتين إلى المدينة حيث منزلها المهجور منذ ثلاثة أشهر وكانت قد أمضت الصيف في منطقة جبلية جميلة من مناطق جبل لبنان.

وعند باب الحديقة استقبلها نباح كلب غريب وزقزقة العصافير الدورية والأشجار فوقفت لبعض الوقت تتذكر زوجها الذي سافر العام الماضي تاركاً لها ثروة ضخمة ومنزل جميل عند طرف المدينة، إنها مشتاقة له كثيراً...

وعندما حاولت أن تترك لذاكرتها العنان نبح الكلب مرة أخرى... فتنهدت بحسرة وألم:

آه ما أصعب أن يعيش المرء وحيداً.

كانت رائحة الرطوبة والعفونة قوية ونفاذة داخل المنزل فجلست السيدة فريال لتستريح على الكنبة، وما هي إلا لحظات حتى استغرقت في نوم عميق...

عندما استيقظت رأت أمامها رجلاً بثياب أنيقة مرتبة وشارب وديع كعينيها، وفي اللحظة التي تأكّد فيها الرجل الغريب أن السيدة فريال استيقظت، اقترب منها مبتسماً، محدّقاً إلى شفتيها، ماداً ذراعيه ليضمها إلى صدره، فذعرت السيدة فريال وحاولت الفرار لكن الرجل كان قوياً استطاع إمساكها وضمها إلى صدره بقسوة وشبق.

سألت فريال مندهشة:

من أنت وماذا تريد مني؟!

بقي الرجل صامتاً، فحاولت السيدة فريال التملص من بين ذراعيه:

أتركني أرجوك.

قال الرجل مغتبطاً:

ماذا تقولين أتركِكِ؟ يا سلام عليك، لا تحلمي بهذا الموضوع، ولا تسمعيني مثل هذا الكلام مرة ثانية.

وبصراحة كان الرجل معه حق، فالسيدة فريال شهية جداً وجسدها يطيّر العقل.

كان الرجل الغريب يتألّم منذ زمن بعيد لاحتضان هذا الجسد فضمه إليه بقسوة وألصق شفتيه بشفتي السيدة فريال الحارتين وضمّ جسدها أكثر بحب ورغبة عنيفة جامحة...

استسلمت السيدة فريال لرغبة الرجل العنيفة وملأت النشوة فؤادها ودمها المحترق...

وفي ساعة متأخرة من الليل ترك الرجل جسدها ممدّداً فوق السرير وهو ينبض بالفرح وغادر المنزل حاملاً في أحشائه غبطة كبيرة هادئة وبقيت السيدة فريال تحلم أحلاماً لذيذة ممتعة...

حين استيقظت في الصباح تذكرت ما حدث ليلة أمس فشكت بحقيقة ما جرى واعتبرت الأمر مجرد حلم، لكنها ظلّت تحسّ بشيء لذيذ يختلج في داخلها وينبض... وبطعم القبل فوق شفتيها الحارتين..

* * *

دعوة لحضور موت أبي

بكت أمي وولولت، ونتفت شعرها، شعرة شعرة، حين أعلن الطبيب أن أبي سيموت بين لحظة وأخرى. وبكيت معها بخوف وقلق، دون أن أعرف أن البكاء لا يعيد الأموات من قبورهم، أو يبعث الحياة والنشاط في جسد أبي إذا حدث ومات فعلاً!

- أمي هل سيبقى والدي حياً إذ بكينا؟!

هزّت رأسها وازداد نحيبها... وكانت شمس المدينة كبيرة وساطعة في ذاك الصباح الخريفي الحزين، ودلف من زجاج نافذتنا شعاعها الذهبي الطويل الدافئ فجلست هناك أرقب المدينة كقطٍ تبلل جسده بماءٍ بارد.

- انهض يا صبي!

قلت مستغرباً:

إلى أين؟!

قالت أمي بيأس:

اذهب إلى بيت خالتك وعمتك، وإلى منزل عمك، وأخبرهم أن يأتوا بسرعة...

- ولماذا؟.

- قلت لك اذهب. لا تكن عنيداً. والدك مريض جداً.

تثاءبت بكسل وهدوء، ثم خرجتُ ملبياً طلب أمي المنتحبة، ظاناً أن أبي سيبقى معنا إذا حضرت العائلة، وإذا كثر البكاء، والعويل.

وفي الخارج كانت شمس الخريف، حزينة تسطع بفتور وملل فوق الشوارع وسطوح المنازل العالية. وكان منزلنا الصغير بعيداً عن أبنية المدينة العالية، ومختلف من حيث الحجم والمضمون، فهو ترابي، مكون من غرفتين ومطبخ صغير ومرحاض منفصل. أمّا هناك في تلك الأبنية المرتفعة جداً، فكنتُ أعتقد أنها محشوة بالقطن وقشور البطيخ والموز. وخالية تماماً من الأطفال.

هكذا كنت أعتقد... وصلت إلى بيت خالتي، منهكاً، ومصاباً بدوار في رأسي ومعدتي، قرعت الباب... فتحت خالتي، الصبية الجميلة. فقلت فجأة: أبي مات! فشهقت هلعة، وانحنت لتضمني دون أن أعرف لماذا.

- أصحيح ما تقول؟

وعندما رأيت دهشتها العظيمة، وهلعها، وخوفها الحقيقي، أعدت كلامي مصحّحاً:

أقصد. أنه سيموت بعد قليل. وأمي تريد أن تذهبي مع أطفالك وزوجك وبعض جيرانك إلى منزلنا.

ركضت بعد ذلك نحو منزل عمتي القريب، تاركاً خالتي مرتبكة حائرة... كانت دهشة عمتي أشد وأعمق، وقد قلت في البداية - دون شعور - نفس الكلام الذي قلته لخالتي المسكينة، لكنني صححت مرة أخرى: لا تصدقي يا عمتي أبي لم يمت بعد. ربما بعد عدة ساعات.

- بذمتك!

- (بذمتي ونص) الطبيب قال لأمي أن أبي سيموت بعد عدة ساعات.

قلت ذلك ثم استدرت عائداً إلى بيتنا الصغير وقد نسيت أن أذهب إلى منزل عمي.

- عمتي. لا تتأخري الله يرضى عليك - أنا ذاهب. تخيلت أبي المريض، ملفوفاً بشرشف أبيض، ومن حوله باقات الورد، وأمي وعمتي وخالتي وأولادهن جميعاً يقفون فوق رأسه، بينما أقف أنا عند قدميه وأنتحب، شارحاً بأسلوبي الخاص كم كنت أحبّه وكم مرة جلب لي الحلوى والليمون والتفاح والشوكولا وخصوصاً أيام الأعياد، فتهز أمي رأسها موافقة: صحيح صحيح...

وقطع حبل تخيّلاتي مشهد بعض الأولاد وهم يشيرون نحوي بعنف وغضب:

انظروا يا شباب هذا هو الصرصور!

قال أحدهم:

إلى أين أنت ذاهب أيها الصرصور المحترم؟

لم أجب...

حاولت الهرب بعد أن رأيت من بينهم ذاك الصبي الشرير الذي تعاركت معه منذ عدة أيام، لكنهم ألتفّوا حولي كشبكة من العنكبوت ثم تقدم نحوي الصبي الشرير:

هل تظن أيها الصرصور أنني نسيتك؟

لم أجب أيضاً...

فقط رحت أبحث بعيني عن مخرج للهرب، تقدم الصبي أكثر مكشّراً عن أسنانه كذئب فقلت:

لا داعي للمزاح الآن أمي بانتظاري.

قال بحنق:

يا عكروت... مزاح... هل تدعو هذا مزاحاً؟!

أشار إلى خدّه المزرق الذي لطمته عليه منذ عدة أيام...

تذكرتُ يوم عراكنا وأدركت أنه يريد أن يهديني عدّة لكمات أو ركلة عنيفة قاسية...

قلت:

أبي سيموت بعد قليل يا شباب... بشرفي وبذمتي...

فانفجروا ضاحكين: هذه لعبة لن تمر علينا يا صرصور!

- بشرفي يا شباب... صدّقوني؟

تقدم الصبي ولكمني على وجهي ثلاث أو أربع مرات، لا أعرف بالضبط، ثم ركلني ركلة قوية قاسية على بطني كما توقّعت، سقطت على الأرض وسالت الدماء فوق وجهي وثيابي...

وأحسست بالدوار يزداد داخل رأسي ومعدتي... ولسبب ما تخيلت أبي محمولاً إلى المقبرة تتبعه أمي المفجوعة وعدد من الناس بثياب سوداء داكنة، وحين حاولت النهوض ركلني الصبي ركله أخرى قوية حاقدة، وسمعت نفسي أقول بصوت ممطوط مرتجف:

بش... بش... بش... بشرفي يا شباب، الطبيب قال لأمي أن أبي سيموت بين لحظة وأخرى!

- آه يا كذاب... يا عكروت... تريد أن نصدّق ألاعيبك؟!

ثم انهالت على جسدي ووجهي الركلات واللكمات...

- خذ... خذ... يا محتال... يا عكروت...

واختلطت الأشياء والصور في رأسي:

صورة أبي المريض، وصورة أمي وعمتي وخالتي وأشياء أخرى...

بعدها لم أعد أشعر بشيء، وقد تلاشت تخيّلاتي، وانطفأ الدوار في رأسي ومعدتي.

* * *

زيارة إلى جدتي

الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً، هذه الساعة أحبها كثيراً لدرجة أنني أحملها معي أينما ذهبت... وحيد أنا الآن بين أربعة جدران وسقف ترابي رطب عشّشت في زواياه العناكب، وتتك الساعة مقتربة أكثر من منتصف الليل.

ساعة متوسطة الحجم أحضرتها معي من المدينة لتوقظني كل صباح كعادتي في تمام الساعة السادسة.

إنها أمينة وصادقة أكثر من رفاقي، وتذكرني كل صباح بحبيبتي.

وحبيبتي على فكرة جميلة جداً...

أقول جميلة ربما لأنها حبيبتي، طيبة القلب وكريمة، لا تبخل علي بالقبل...

مسكينة أنت يا حبيبتي...

ومسكين أنا أيضاً لأننا ربما لن نرى بعضنا بعد الآن.

فالمسافة بين هذه القرية النائية، والمدينة بعيدة جداً ولا أعرف ماذا سيحدث لي أثناء هذه الزيارة - غير المتوقعة - لجدتي العجوز، على فكرة أيضاً:

رغم المسافة البعيدة التي تفصلني عنك، فإنني أحس بك قريبة جداً مني، ومن كياني. فها هي صورتك ترتسم فوق خزانة خشبية وُضعت عنوة داخل هذه الغرفة الضيقة - أقصد غرفة جدتي - وهذه الخزانة كنت قد اعتدت منذ زمن بعيد، أي قبل رحيلي إلى المدينة أن أضع بداخلها ثيابي وكتبي المدرسية إضافة إلى أشياء أخرى لجدتي...

أرسلت جدتي منذ أيام برقية إلى مكان عملي في المدينة تقول فيها أنها مريضة جداً، فأسرعت بطلب إجازة.

حين وصلت القرية ودخلت غرفة جدتي الترابية ملأت الفرحة قلبها وشهقت بفرح وغبطة وقالت وهي تحتضنني:

«يا تقبرني، يا سندي، أرسلت لك برقية لكي تحضر وأراك، أنا مشتاقتلك كثيراً» لم تكن جدتي مريضة، لذلك اطمأن قلبي وجلست أستمع إلى أخبار البلد وأوضاعها بشيء من التفصيل:

اسمع يا سندي، جارتنا رمزية تزوجت الله يسّهل عليها... وبقرة جدتك ولدت وهي الآن والحمد الله بخير، بعت أربع دجاجات في الشهر الماضي لعمتك شكرية.

حوالي العاشرة ليلاً ذهبت جدتي لتنام، وقد أصرّت أن تأخذني معها في الصباح إلى الحقل.

الليل دامس وجدتي نائمة الآن، نامت باكراً مع الدجاجات لأنها تقول غداً عندها حصيدة.

وموسم الحصيدة عندنا في القرية شيء متعب ولذيذ في وقت واحد.

بعد حوالي خمسة ساعات من الآن ستأتي جدتي لتوقظني قبل ساعتي الصغيرة، وسأخرج مع حمارها إلى حقلها البعيد، ورغم صعوبة الاستيقاظ في مثل هذا الوقت المبكّر، لكنني أشعر بالاطمئنان والسعادة أكثر من أي وقت مضى.

إنها فرصة لا تعوّض أن أزور جدتي في موسم الحصاد، فرصة لأتذكّر طفولتي..

ألمح في الزاوية شبح حشرة سوداء تدبّ نحوي، وأسمع صوت صرصور بعيد وذئب يعوي...

صورة حبيبتي لا تزال مرتسمة فوق الخزانة الخشبية، فأخشى أن تبقى حتى الصباح.

ستقول جدتي:

مَن هذه؟!

وسأجيبها دون لف أو دوران:

أنها حبيبتي.

- تشرّفنا، ماذا تفعل هنا المحروسة الله يخليها؟!

- لقد أحضرتها معي من المدينة.

- يا سلام، هيا يا تقبرني غطّي حبيبتك بهذا المنديل ودعها نائمة ريثما نعود من الحصيدة.

- سنأخذها معنا.

- يا حيفي عليك، هي ضيفتنا اليوم فقط، غداً نأخذها معنا لا تزعل.

يقطع حبل أفكاري عواء الذئب وصوت الصرصور البعيد...

ضوء الغرفة شاحب ويُخيّل إليك أنه رطب أو متعفّن، وشبح الحشرة لا يزال يقترب مني... فأعود لأشرد مع ذكرياتي...

«ما أجمل هذه الغرفة الترابية... لقد قضيت طفولتي هنا مع جدتي التي اعتنت بي حتى كبرت.

جدتي بالنسبة لي هي كل شيء، وأكذب عليكم إذا قلت أنني أزورها باستمرار، المدينة غيّرتني وجعلتني أفكّر بنفسي فقط، ليتني بقيت هنا! يا ألف ليت!»

ملقطان كبيران وجسم بيضوي ذو أرجل قصيرة وذيل أسود معقوف، إنها تسير نحوي، وقد باتت على مقربة من قدمي العارية...

وفي اللحظة التي غرست إبرتها السّامة في لحمي، تكّت الساعة بشكل جنوني على غير عادتها... ويبدو أنها فعلت ذلك لتعلن وفاتي...

النجدة... أنقذوني...

* * *

موت وانتظار

شعرتُ بصداع خفيف وأنا أنزل الدرج مهرولاً...

وفي الزقاق الضيق الطويل تحوّلت هرولتي إلى ركض سريع مضطرب...

وكانت أمي قد قالت لي منذ لحظات:

دخيلك يا بني، معدتي!

- ما بها؟

قالت متضرعة:

لا أعرف، آه معدتي معدتي...

ها أنا أقترب من نهاية الزقاق الذي يلتقي بالشارع الرئيس...

كانت السيارات قليلة فوقفت قلقاً أنتظر سيارة ما، وتذكرت أن أمي مرضت مرضاً شديداً في العام الماضي وفي مثل هذا الفصل تماماً، فصل الخريف، ولولا لطف الله لكانت الآن...

آه تلك سيارة قادمة...

مددت يدي:

تكسي تكسي.

خفّفت السيارة من سرعتها ثم توقفت.

أسرعت إليها:

مرحباً يا أخ

ردّ بجفاء وبرودة أعصاب:

أمر!

سألت:

حين يقول أحدهم مرحباً هل تعتقد أن الجواب يكون أمر؟

استغرب السائق سؤالي وظل صامتاً فتابعت وأنا أصعد:

أمي مريضة، بسرعة أرجوك اطلعْ بهذا الزقاق...

- خمسون ليرة؟

- لا، هذا كثير؟!

إذا لم يعجبك تفضّل وانزل!

وبالفعل فتحت الباب ونزلت حانقاً:

لا تؤاخذنا أخي عطّلناك.

وعدت لأقف حيث كنت...

طال انتظاري بعض الشيء، تذكرت خلاله أخي العفريت المشاكس الذي هرب أكثر من مرة من الجيش بسسبب حليمة ابنة الجيران.

كانت آخر مرة رأيته فيها هي تلك الليلة المثلجة حين جاء على عجل، حزم حقائبه ورحل دون أن يودّع أحداً.

وفي اليوم التالي انتشر الخبر:

حليمة هربت!

وأدركت أنها هربت حتماً مع أخي الهارب هو أيضاً من الجيش، وبينما كنت أتذكر، تكاثفت الغيوم فوق رأسي وشرعت السماء تبرق وترعد...

ومن زقاق قريب خرجت امرأة شابة ثم اتجهت نحوي...

وعرفتها حين اقتربت مني...

إنها المرأة الشهية التي كنت أطاردها بصمت وشوق في الشوارع والأزقة الضيقة...

وتفاجأتُ عندما ابتسمتْ قائلة:

مرحباً.

أجبت مندهشاً أيضاً، في حين أشارت برأسها أن أتبعها...

حاولت التأكّد من ذلك ومن أنني لست في حلم، صمتُّ لدقائق، سمعتها تقول بعد ذلك:

تعال، أتبعني، هل أنت خائف؟

وفي اللحظة التي هممت فيها أن أهرول خلفها تذكّرت أمي... آه أجل يجب أن أوقف سيارة بسرعة. هذه المرة توقفت سيارة دون أن أشير إليها...

ركضت إلى السائق:

الله يعطيك العافية

- خير؟

صعدت مشيراً نحو الزقاق المؤدي إلى بيتنا الصغير:

يصيبك خير، أمي مريضة قليلاً، من هناك إذا سمحت...

انطلقت السيارة بحذر وهدوء وعادت إلى مخيلتي صورة المرأة وجسدها الفاتن، وأحسست بشيء حار يغلي في داخلي ويعوي متضرّعاً، فكّرتُ قليلاً:

راحت عليك يا ولد، كانت فرصة مناسبة جداً، وربما لن تتكرر مرة ثانية، أجل، سوف لن تعود هذه الفرصة العظيمة.

ستقول عني هذه المرأة الجميلة أنني أحمق وديك غبي، «ومش خرج هيك شغلات».

أجل، سوف تقول ذلك بكل تأكيد...

قطع حبل أفكاري صوت السائق:

أين المنزل يا أخي؟ هل هو بعيد؟

لا لا، على فكرة: كم الأجرة؟

- لن نختلف.

قلت:

لا حبيبي، حساب على الحقل ولا خناق على البيدر.

- معك حق، لن نغلّي الأجرة عليك.

- قدّيش بدّك؟

- خمسون ليرة فقط.

- أوه... كثير؟!

- أربعون ليرة؟

- كمان شوي؟

- طيّب، كرمال شواربك ثلاثون ليرة.

قلت وأنا أعدّل من جلستي:

أخي مرحبا عليك، آخر كلام؟

أجاب:

قدّيش بدّك تدفع؟

- عشرون ليرة.

ضحك بسخرية وأوقف السيارة:

انزل أخي، عشرون ليرة لا تكفي سندويشة فلافل، انزل أخي، انزل.

- طيّب، أرجعني من فضلك إلى حيث كنت أقف. عادت السيارة بنا وأنزلني السائق حيث كنت أقف تماماً وهو يشتم ويلعن هذا النهار الأسود... وكانت الأمطار تتساقط بغزارة وشراسة عنيفة...

وخلال دقائق تبلّلت ثيابي ونفذت المياه إلى حذائي القديم... وأحسست بالصداع يزداد داخل رأسي ويكبر...

بعد أكثر من ساعتين تقريباً، عدتُ إلى بيتنا الصغير، وقد اتفقت مع سائق (طرطيرة)[*] على أجرة مناسبة.

أجل...

عدتُ بعد انتظار دام أكثر من ساعتين، لأجد أمي العجوز متوفّية، تاركة لي فوق وجهها الشاحب، ابتسامة حزينة، عاتبة.!

* * *

(*) طرطيرة: عربة صغيرة شعبية تسير على ثلاثة دواليب.

فهرس

الصفحة

الإهداء ٥

أعود بعد الموت ٧

الرحيل في أمسية باردة ١٢

المصيدة ١٥

الحلم المرعب ٢١

صراخ الطيور السوداء ٢٥

نجوم بعيدة مطفأة ٢٨

الفأر والمدينة ٣١

جنية البحر ٣٥

المفترسون ٤٣

أحزان غرفتي الكئيبة ٤٧

عودة الثلج ٥٢

الصفحة

يا غشيم ٥٦
خبطة العمر ٦١
انكسار الحلم ٦٥
بانتظار موتي... ..... ٧٠
هذا المساء ٧٣
في تلك الليلة ٧٥
الساعة الملعونة ٧٧
الغابة ٨١
بقايا حلم... ..... ٨٦
فراشات الثلج ٩٦
قبلة واحدة فقط ١٠٠
بين الحلم والحقيقة ١٠٤
دعوة لحضور موت أبي ١٠٧
زيارة إلى جدتي ١١٣
موت وانتظار ١١٨

سهيل أديب الشعار

- قاص وكاتب سوري.
- ولد في لبنان عام ١٩٧٢م.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- عضو جمعية القصة والرواية في اتحاد الكتاب العرب.

نال العديد من الجوائز الأدبية. منها:

١- الجائزة الأولى للقصة القصيرة لاتحاد الكتاب العرب فرع السويداء عن قصته: نجم أزرق بعيد.

٢- جائزة القصة القصيرة لمهرجان المزرعة الأدبي عن قصته: انتظار.

٣- جائزة ابن طفيل للقصة القصيرة لمهرجان السويداء الأدبي عن قصته: الحصان.

٤- جائزة الـ BBC - لندن - للقصة العربية عن قصته: الفئران.

٥- جائزة أفضل كتاب مطبوع في مهرجان المزرعة الأدبي عن مجموعته القصصية: اعترافات متسكّع دمشقي. المرتبة الأولى.

ينشر الكاتب قصصه ونصوصه الأدبية في الصحف والمجلات المحلية والعربية.

صدر للمؤلف:

- اعترافات متسكع دمشقي، قصص ١٩٩٩م.
- حب وعصافير، قصص، اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠١م.
- الذئب الراكض في المدينة، قصص، وزارة الثقافة، ٢٠٠٢م.
- غابة البلوط، قصص، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤م.
- ليل المدينة، قصص، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٦م.
- العناكب، قصص، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٩م.
- الرماد وقصص أخرى، الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٢م.
- صفوة الصفوة من المواعظ والأمثال والحكمة، دار الغانم للثقافة ٢٠١٧م.

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م

كلمة الغلاف

صعد معنا ثلاثة شباب، تحدّثوا إلى صديقي:

توجّه إلى أقرب مشفى...

وقال أحدهم مشيراً بيده:

اطلع من هنا، بهذا الطريق... بسرعة... بسرعة...

عند هذه الكلمات الأخيرة، شعرتُ بأنني أخرج من جسدي وارتفع نحو الأعلى... إنها روحي تخرج من جسدي بالرغم عنها...

* * *

بكت أمي وولولت، ونتفت شعرها، شعرةً شعرة، حين أعلن الطبيب أن أبي سيموت بين لحظة وأخرى...

وبكيتُ معها بخوف وقلق، دون أن أعرف أن البكاء لا يعيد الأموات من قبورهم، أو يبعث الحياة والنشاط في جسد أبي إذا حدث ومات فعلاً!

* * *